طالب الداوود

ليلات بغداد

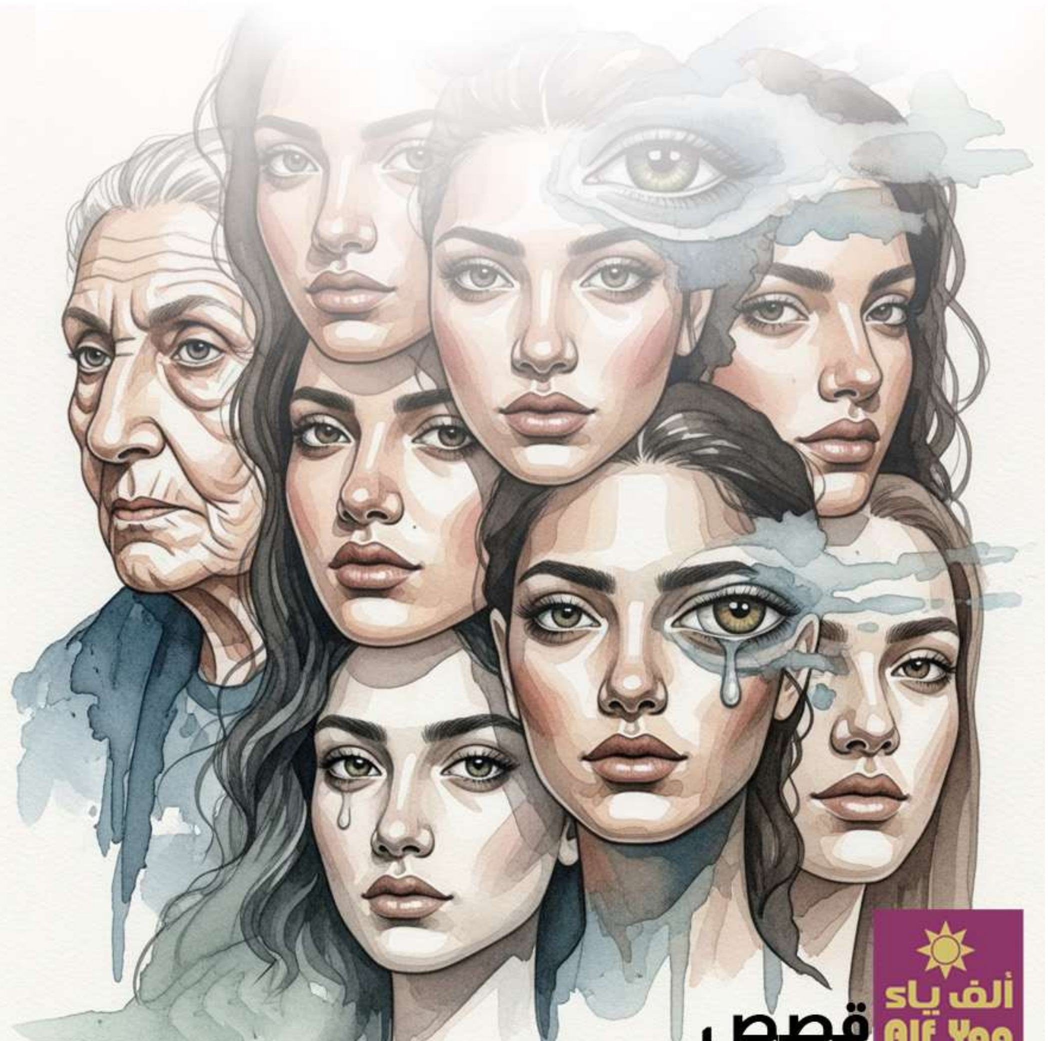

قصص

ألف ياء
Alf Yaa

ليلات بغداد

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

المؤلف: طالب الداوود

الكتاب: ليلات بغداد (قصص)

صدرت النسخة الرقمية: تشرين الثاني/أكتوبر 2025

- **الناشـر: «ألف ياء AlfYaa»**
- **الموقع الإلكتروني:** www.alfyaa.net
- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات
- (ePub ،PDFوMobiو/أو أي تنسيق رقمي آخر
- محفوظة لـ**«ألف ياءAlfYaa»**
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبِّر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
- **«ألف ياء AlfYaa»**ناشـرة للكتاب فقط وهي
- غير مسؤولة عن محتوى الكتاب

- **تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداوود**

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

طالب الداوود

ليلات بغداد

قصص

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «الف ياء» «AlfYaa»

المحتويات

مرآة الرماد.. 7

أطلال الذاكرة.. 29

أنفاس متقطعة.. 47

نداء وصدى.. 61

رائحة موت... 77

تجليات الفقد.. 89

ندوب الغربة.. 103

دروب أخرى.. 129

أزهار غاضبة... 141

وشم الجحيم.. 155

ريح الهواجس... 167

بغداد ـ لالش ـ الرقة.................................... 181

ولادة ليلى.. 195

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

مرآة الرماد

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

في مدينةٍ تخلّت عنها المرآة، لم تعد ليلى تبصر إلا ما يرسمه الضوء في عينيها من خيوط الظلال الكاذبة. أيُّ حقيقةٍ أشدّ قسوة: تلك التي تتسرب من شقوق الأسوار، أم تلك التي تبنيها الروحُ لتهرب من هول الخسارات؟ بعد سنتي 2006 و2007 المجنونتين، تحوّلت بغداد إلى متحفٍ صاخب للأشباح، وباتت ليلى نحّاتها الأعمى، تنحتُ من العدم عوالمَ، وتلوّن من الرماد كوابيسَ تُقنعها بأنها أحلام. كلّما اتسعت رقعة الخراب في الخارج، كلما انكمشت عوالمها الداخلية، لتعيد تشكيل نفسها على هيئة فُسَيْفِساءٍ غريبة، تعكس أضواءً لا يراها أحد سواها، تائهةً بين خيارين لا ثالث لهما: الغرق في واقعٍ مرير، أو التحليق في جنونٍ بهي.

تلمستْ أصابع ليلى شقوق الجدار الباردة، خيوطاً رفيعة تتراقص كعروقٍ جافة على جسدٍ متهالك. لم يكن الجدار هو الوحيد المتهدم في هذا المنزل، ولا في هذه المدينة. كلّ شيءٍ حولها مجرّد قطعٍ متناثرة، تنتظر إشارةً ما، رياحاً عاتية، لتبعثرها بلا رحمة. تتذكر ليلة 2007 كأنها ندبةٌ حية على جلد الذاكرة، ليلةٌ طويلة من الهستيريا والرصاص، حيث تبخّر صوت الضحكات، واحتلّت رائحة البارود كلّ زاوية من زوايا البيت الذي كان يعجّ بالحياة. لم تعد تتذكر الوجوه بوضوح، فقط صدى الضحكات المبتورة، وصرخة أمها التي سكنت أذنها للأبد، وتلك الشرارة الحمراء التي أطفأت العالم في عينيها.

تستيقظ، في كلّ صباحٍ، على صوتٍ غريب، ليس صوت العصافير التي اختفت من سماء بغداد، ولا صوت مولد الكهرباء

منشورات «الفياء» AlYaa

الذي يوقظ الجيران. صوتَ تكسُّرٍ خفيف، كأنّ زجاجاً هشّاً يتفتت في مكانٍ بعيدٍ من وعيها. كانت تحاول تجاهله، تدّعي أنه مجرد وهم، لكنّه يزداد وضوحاً مع كلّ يوم، كأنّه ينبع من أعماقها، من تلك المرآة الخفية التي تحملها بداخلها. كانت المرآة التي تعكس أيامها الأولى، أيام الفرح والوضوح، قد تهشمت تماماً، وباتت صورها ضبابية، مختلطة ببعضها البعض، كأنّ الماضي يتصارع مع الحاضر على أرضيةٍ من رماد.

"ليلى، هل سمعتِني؟"

صوت الجارة "أم حسن" يخترق غشاء صمتها، صوتٌ خشنٌ ومحبّب، يحمل ثقل السنين والأحزان. نظرت ليلى نحو الباب، لم تفتحه بالكامل، بل أطلّت بوجهٍ شاحب وعينين غائمتين.

"نعم، سمعتكِ أم حسن."

أجابت بفتور، كأنّ الكلمات تخرج من بئرٍ عميق. أم حسن تحمل طبقاً من الخبز الساخن وصحني رز ومرق، رائحة ما في الطبق تذكّر ليلى بأيامٍ لم تعد موجودة.

"يا ابنتي، أنتِ لا تأكلين. وجهكِ أصفر كالورق. إلى متى ستظلين هكذا؟"

تتنهد أم حسن بحزنٍ مكتوم، ثم تتابع: "العالم لم يتوقف. الحياة تستمر. يجب أن تخرجي، تتنفسي، ترَيْ..."

"ماذا أرى يا أم حسن؟" قاطعتها ليلى بنبرةٍ حادة لم تقصدها. "ماذا أرى في هذا العالم سوى قطعٍ متناثرة؟ كأنّ السماء نفسها قد تحوّلت إلى مرآةٍ محطمة، تعكس أوجاعنا ألف مرة."

تراجعت أم حسن خطوة، نظرة الشفقة في عينيها تؤلم ليلى أكثر

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

من ألف طعنة. كانت تعرف هذه النظرة، نظرة العاجزين، نظرة من يرى روحاً تذبل أمام عينيه ولا يملك القدرة على إنقاذها. أغلقت ليلى الباب بهدوء، تاركةً أم حسن وطبقها خارج عالمها المتداعي.

الغرفة مظلمة، في بيت مهمل، تطلّ على حديقةٍ ذابلة، وأشجارٍ عاريةٍ فقدت أوراقها، تماماً كروح ليلى التي فقدت أزهارها. جلست على كرسيها الخشبي القديم، تتأمل الضوء الخافت الذي يتسلل من شقوق النافذة المكسورة، يرسم خطوطاً وهمية على الغبار المتراكم. كلّ شعاعٍ من هذا الضوء يحمل غباراً، حُطاماً مرئيّاً من الواقع، جزيئاتٍ صغيرة تتراقص في فراغٍ كبير. لم تعد تحسّ بالحاضر، ولا بالمستقبل. الزمن عندها توقف عند تلك الليلة المشؤومة، وباتت تعيش في فقاعةٍ زجاجية، تسمع أصوات العالم من بعيد، لكنها لا تلامسه.

شعرت بثقلٍ على صدرها، كأنّ كلّ تلك الشظايا المتناثرة من المرآة المحطمة قد استقرت في جوفها. تتوق إلى شيءٍ ما، أيّ شيءٍ، يعيد لها إحساسها بالتماسك، بالوجود. تساءلت في صمت: هل يمكن لمرآةٍ مكسورة أن تعكس شيئاً غير الحطام؟ هل يمكن لروحٍ مهشمة أن تبني عالماً من العدم؟ أصبح هذا السؤال الشرارة الأولى، نقطة التحول غير المرئية. وباتت هذه القطع المتناثرة لا تحمل ألم الانكسار فحسب، بل تحمل أيضاً وعوداً خفية، وعوداً لبناء شيءٍ آخر، شيءٍ خاص بها وحدها.

* * *

لم تكن ليلى تبني جدراناً حول نفسها وحسب، بل تبني عوالمَ كاملة. بدأت العملية بخطواتٍ خجولة، ثم تحوّلت إلى اندفاعٍ محموم. لم تكن هذه مجرد أحلام يقظة عابرة؛ بل هندسةً معمارية واجتماعية

منشورات «الفياء» «AlfYaa»

دقيقة، تستخدم فيها كلّ قطعةٍ مهشّمة من الواقع لبناء قصرٍ من الخيال. صوت تكسر الزجاج الذي يتردد في أعماقها لم يعد مؤشراً على التدهور، بل أصبح إيقاعاً لعملية البناء. كلّ شظية هي بذرةً لعالم، وكلّ خدش في الجدار بوابة.

أصبحت تجلس لساعاتٍ طويلة في غرفتها، تحتضن كتاباً قديماً أكلته أيام الإهمال، صفحاته مبعثرة، حكاياته مبتورة. لم تكن تقرأه، بل تستلهم منه. تستلّ كلمةً هنا، صورةً هناك، لتعيد تركيبها في لوحاتٍ ذهنيةٍ لا متناهية. الشباك المكسور، الذي يطلّ على حديقةٍ مهملة، أصبح نافذتها على عوالم أخرى. في إحدى لحظات شرودها، رأت عبر الشقّ في زجاج النافذة، لا الغبار المتراقص، بل رأت ضوءاً خافتاً، يتلوى كشريطٍ حريريّ، ينساب فوق أرضيةٍ خضراء مزدهرة، حيث تنبعث رائحة الأزهار البرية، وتتراقص الفراشات بألوانٍ لم تَرَها عيناها منذ عام 2007.

في هذا العالم، الذي أطلقت عليه اسم "بابلداد"، ليلى ليست مجرد ليلى. بل "عشتار"، مهندسة الأكوان النجمية. لم تعد وحيدة، بل محاطة بكائناتٍ من نسج خيالها، بعضها يشبه البشر، وبعضها الآخر مجرد أطيافٍ ضوئية تتكلم بلغةٍ لا يفهمها إلا قلبها. "سيدرا"، صديقتها التي اختفت في ليلة من ليالي جنون بغداد، عادت إليها في بابلداد. لم تعد سيدرا تلك الفتاة الضاحكة ذات العينين المتلألئتين، بل تحوّلت إلى "سيدوري" صاحبة الحانة في طريق گلگامش، لا، بل كاهنة القمر، ذات وشاحٍ فضي ينسدل على كتفيها، وعينين عميقتين كليل بغداد الهادئ، لكنهما تحملان حكمة آلاف السنين. أصبحت سيدوري مرشدتها في هذا العالم، حارسة بوابات الوعي واللاوعي.

تسللت ليلى إلى بابلداد تدريجياً. بدأت بقفزاتٍ سريعة، لمحاتٍ خاطفة، ثمّ باتت تقضي ساعاتٍ طويلة هناك. تبني القلاع من الغيوم،

«AlFYaa» منشورات «الفـيـاء»

وتصنع البحيرات من ضوء القمر، وتزرع الأشجار التي تثمر النجوم. لم يكن هذا مجرد خيال، بل حقيقةً مُتَمَاسِكة، لها قوانينها الخاصة، وتفاصيلها الدقيقة. إذا عطشت، وجدت هناك ينبوعاً من الماء الفضي. إذا شعرت بالبرد، تتوهج في بابلداد شمسٌ دافئة.

لكنّ الأهمّ من كلّ ذلك، أن بابلداد لم تكن مجرد هروب من الألم؛ بل هروباً إلى القوة. في هذا العالم، لم تكن ليلى ضحية، بل الخالق. الكلمات التي فشلت في نطقها في العالم الحقيقي، تتجسّد في بابلداد كتعويذاتٍ سحرية تشكّل الواقع. الشظايا التي وُذيها، أصبحت الآن بين يديها أداةً للنحت. تحمل بين أصابعها إحساساً غريباً بالسيادة، بالتحكم، كأنّها تتذوق طعم الآلهة.

وجدت في كلّ زاوية من زوايا غرفتها المهجورة، نقطة انطلاقٍ جديدة لعوالمها. كرسيها الخشبي يتحوّل إلى عرشٍ من الألماس. الرماد المتراكم في الموقد المعدني يصبح غيوماً متلبّدةٍ بالذهب. كلّ شيءٍ في العالم الخارجي، مهما بدا قبيحاً أو مؤلماً، يتحوّل في مرآة روحها المكسورة إلى مادةٍ خامٍ لإبداعها. رفضت أن ترى القبح فقط، بل أصرّت على أن تستخلص منه الجمال، حتى لو كان جمالاً مشوّهاً، أو جمالاً تكتشفه هي وحدها.

في إحدى الأمسيات، تسلل صوتٌ خشنٌ من الشارع، صوت سيارة عسكرية، يعقبه صراخٌ مكتوم. بدل أن ينفذ الصوت إلى أعماقها كخنجرٍ بارد، كما يفعل من قبل، تحوّل في بابلداد إلى هتافٍ حماسيّ لفرسانٍ يمتطون جياداً مجنّحة، قادمةٍ لنجدة مملكةٍ في خطر. أغمضت عينيها بإحكام، ورأت سيدوري تبتسم لها، تشير إلى الأفق البعيد، حيث تلوح أبراجٌ شامخة من الضوء. "هذا هو عالمكِ يا عشتار، أنتِ من يبنيه، وأنتِ من يحميه."

منشورات «الفياء» AlYaa»

لم تكن تلك مجرد كلمات عزاء، بل كانت حقيقةً بدأت ليلى تعتنقها بكلّ جوارحها. تدري أنّها تعبر خطّاً رفيعاً بين العقل والجنون، بين النور والظلام، لكنّها تفضّل جنونها الذي يمنحها القوة، على عقلانيةٍ تتركها عاريةً أمام وحش الألم. تعلم أيضاً أنّ هناك ثمناً، ثمناً فادحاً، لكنّها مستعدة لدفعه. الثمن الحقيقي هو أن تفقد نفسها، أن تصبح مجرد صدى في عالمٍ لا يسمعها. أما الثمن الذي تدفعه الآن، فهو أن تصبح خالقةً، أن تسمع صدى نفسها في عالمٍ صنعته هي بيديها، حتى لو كان صدى من شظايا.

* * *

كلّما تعمّقت ليلى في بابلداد، كلّما تلاشت الحدود بين عالميها. لم يعد الأمر مجرد هروبٍ واعٍ، بل تحوّل إلى تداخلٍ عضوي، كأنّ أليافَ الواقعَين قد تشابكت معاً لتنسج نسيجاً واحداً معقداً، لا يمكن فصل خيطٍ فيه عن الآخر. كانت أصوات بغداد لا تزال تصلها، هدير السيارات العسكرية، ضجيج الباعة، صرخات اليأس، لكنها لم تعد تسمعها كما كانت في السابق. كانت هذه الأصوات تمر عبر مرشحٍ سحريّ، تتحول إلى إشاراتٍ، إلى رموزٍ تنتمي إلى بابلداد.

عندما كانت أم حسن تطرق الباب بعنف، حاملةً سؤالاً عن ليلى أو طبقاً من الطعام، لم تكن ليلى تسمع طرقاً على بابٍ خشبيّ، بل تسمع قرعاً مهيباً على بوابات بابلداد الزجاجية، إشارةً على قدوم سفيرةٍ من العوالم الأخرى، تحمل معها رسائل مبهمة. تُعرف "أم حسن" في بابلداد باسم "الحارسة العجوز"، ذات العباءة الرمادية، التي تحمل على كفها كراتٍ من البلور النقي، تهمس فيها بأسرار الوجود المتقطعة. وليلى، "عشتار"، تستمع إليها بجدّية، تحاول فكّ شفرات كلماتها، التي كانت في الحقيقة مجرد نصائح أم حسن

منشورات «الفياء» «AlYaa»

العادية: "يجب أن تأكلي، يجب أن تخرجي". لكنّ عشتار ترى فيها تحذيراتٍ كونية، أو وصايا مقدّسة.

صارت سيدوري، كاهنة القمر، هي محور هذه المتاهة. لم تعد مجرد رفيقة، بل أصبحت صوتاً داخلياً لليلى نفسها، تجسيداً لحكمتها الباطنية، أو ربما لجزءٍ من جنونها. كانت سيدوري تتحدث بكلماتٍ بليغة، تصف عوالم لم تزرها ليلى بعد، وتكشف عن حقائق عميقة حول طبيعة الوجود والانكسار. "يا عشتار، هذه الشظايا ليست ألماً، بل هي نوافذ. كلّ نافذة تطلّ على عالمٍ، وكلّ عالم هو انعكاسٌ لحقيقةٍ أخرى. الحقيقة ليست واحدة، بل هي فسيفساء من الانعكاسات."

ليلى تتبعُ سيدوري في رحلاتها الخيالية، تعبر معها أنهاراً من النسيان، وتتسلق جبالاً من الرماد المضيء. ترى نهري دجلة والفرات ينسابان في بابلداد كشرائطٍ من الضوء السائل، تغذي أشجاراً عتيقةً تروي حكايات الماضي بصمتٍ مهيب. تلتقي بأقاربها وأحبائها الذين فقدتهم في ليلة رماد بغداد، لم يعودوا أشباحاً حزينة، بل صاروا كائناتٍ نورانية، تبتسم لها بهدوء، وكأنهم يشاركونها سرّ وجودها الجديد. تضحك مع والدها، وتتحدث مع والدتها، وتلعب مع أخيها الصغير، وكلّ ذلك يتمّ بوضوحٍ، بحقيقةٍ تتجاوز كلّ ما هو مادي.

في إحدى الليالي، بينما كانت ليلى جالسةً في غرفتها، شعرت بهزةٍ خفيفة في الأرض. في العالم الحقيقي، ويعني هذا انفجاراً بعيداً، صوتاً قادماً من إحدى الضواحي التي تتصارع على هويتها. لكن في بابلداد، كانت هذه الهزة تعني شيئاً مختلفاً تماماً. اهتزت قلاعها الزجاجية، وتصدّعت أبراجها الضوئية. ظهرت سيدوري أمامها، وجهها شاحب، عيناها تحملان نظرة قلقٍ لم ترها فيها من قبل.

منشورات «الفياء» «AlYaa»

"الصدع يتسع يا عشتار. قوة العالم الخارجي تضغط علينا. إنهم يحاولون سحبكِ."

"من هم؟" سألت ليلى بصوتٍ مرتعش، تشعر لأول مرةٍ بالخوف في عالمها.

"الذين يخشون ما لا يفهمون. الذين يصرّون على أنّ الحقيقة لا تتعدى ما يرون ويلمسون. إنهم يرفضون عالمكِ لأنّه تحدٍّ لهم."

شعرت ليلى بالضيق، كأنّ خيطاً رفيعاً كان يربطها ببابلداد بدأ ينقطع. بدأت ترى شقوقاً في لوحاتها الخيالية، نقاطاً سوداء تتسع في سمائها الضوئية. كانت قطع المرآة التي بنت بها عالمها تتراجع، تعكس فجأةً صوراً من بغداد الحقيقية: الجدران المتصدعة، الوجوه البائسة، الغبار الذي يكسو كلّ شيء. بدأ هذا التداخل مؤلماً، كأنّ جسدها يتمزق بين واقعين متصارعين.

لم تعد تعرف أين تنتهي الحقيقة وأين تبدأ هلوساتها. هل تلك الضحكات التي تسمعها في بابلداد حقيقيةً؟ أم أنها مجرد صدى لأيامٍ ماضية، تعيد روحها تركيبها لتهرب من مرارة الحاضر؟ بدأت تتساءل: هل كانت سيدوري مجرد تجسيدٍ لرغباتها الخفية، أم أنها كائنٌ حقيقيّ يسكن في أعماق روحها؟

متاهة الثنائيات تزداد تعقيداً. أصبحت تتحدث إلى نفسها بصوتٍ مسموع، تجادل سيدوري، تشرح لها تفاصيل يومها في بغداد، وتنتظر ردّ سيدوري الذي كان يأتي في شكل همساتٍ خفية، أو رؤى تتراقص أمام عينيها. كانت تخاف من العزلة، لكنها في الوقت ذاته كانت تخاف من التواصل مع الآخرين، لأنها كانت تعلم أنهم لن يفهموا عالمها، وسيعتبرونها مجنونة. هذا الصراع الداخليّ يؤجّج النار في قلبها، ويجعلها تتمسك ببابلداد أكثر، حتى لو كانت هذا

منشورات «الفيا» «AlYaa»

التمسّك يعني الانفصال التامّ عن ما يسمّيه الآخرون واقعاً. تدرك أن هذا هو ذروة صراعها، ولحظة الحسم قريبة. إما أن تنهار تماماً، أو أن تفرض واقعها كحقيقةٍ لا تقبل الجدل.

* * *

لم تعد الهزّات تتوقف. كلّ يومٍ، والصراع يشتدّ بين العالمين. تشعر ليلى بتيارين متناقضين يسحبانها في اتجاهين مختلفين. تيار بغداد، بما فيه من ثقل الألم، ورائحة الرماد، وصخب البؤس، وتيار بابلداد، بما فيه من خفة النور، وجمال الأوهام، وهدوء الوجود المبتكَر. كانت الغرفة نفسها، التي كانت في السابق مجرد مكانٍ للإقامة، قد تحوّلت إلى ساحة معركةٍ نفسية، حيث تتراقص الظلال وتتلاشى الصور، وتتداخل الأصوات.

في إحدى الليالي العاصفة، التي كانت رياحها تعوي كذئابٍ جائعة، وتحمل معها غباراً كثيفاً يلفّ المدينة في حجابٍ من التراب الأصفر والبني، جلست ليلى في غرفتها، وعيناها مثبتتان على مرآةٍ صغيرةٍ مهشمة، آخر ما تبقى لها من مجموعتها القديمة. تعكس المرآة وجهها الشاحب، عينيها الواسعتين اللتين تحملان بحراً من الأسرار. لكنّها لم تكن ترى وجهها وحسب، بل كانت ترى خلف وجهها انعكاساً لبابلداد، أبراجها الزجاجية تتلألأ تحت قمرٍ فضيّ، وسيدوري تبتسم لها ببطءٍ، ابتسامةً تحمل حزناً عميقاً.

"حان الوقت يا عشتار." همست سيدوري بصوتٍ لم يكن صوتاً، بل إحساساً يتردد في كلّ خليةٍ من خلايا جسدها. "حان وقت الاختيار."

"أيّ اختيار يا سيدوري؟" سألت ليلى، تشعر ببرودةٍ تلفّ قلبها.

منشورات «الف ياء» «AlfYaa»

"لا أستطيع أن أعيش في العالمين معاً. كلاهما يمزقني."

"لا أحد يطلب منكِ أن تعيشي في العالمين معاً. بل أن تختاري أيهما الحقيقة الأعمق بالنسبة لكِ."

بَدَتْ الكلمات قاسية، لكنها كانت ضرورية. تعلم ليلى في أعماقها أنّ هذا اليوم سيأتي. تعلم أنّها لا تستطيع أن تظلّ معلقةً بين البرزخين، بين الشظايا المتناثرة والفسيفساء المتخيلة، بل يجب عليها أن تدمج كلّ شيء، أن تصنع انعكاساً كاملاً، حتى لو أن هذا الانعكاس لا يراه أحدٌ سواها.

في تلك اللحظة، تحوّلت الشقوق في المرآة الصغيرة إلى أنهارٍ من الضوء المتدفّق، انهاراً اجتاحت الغرفة، وأضاءت كلّ زاويةٍ فيها. بدأت الجدران تتلاشى، والسقف يتفتح على سماءٍ مرصّعة بالنجوم، لم تعد نجوم بغداد الحزينة، بل نجوم بابلداد الساطعة. لم تعد تسمع عواء الرياح، بل سمعت موسيقى كونية هادئة، تتردد فيها أصداء صوت والدها ووالدتها وأخيها، أصواتاً مليئة بالحبّ والسكينة.

مدّت يدها نحو المرآة، لمست سطحها المكسور. لم يكن زجاجاً بارداً، بل كان نسيجاً حيّاً يتوهّج. ثمّ، تمدّدت الشقوق، واتّسعت، لتصبح بواباتٍ لا نهاية لها، بواباتٍ تنفتح على عوالم أخرى داخل بابلداد، عوالم لم تكتشفها بعد، لكنها تعرف أنها ملكها.

لم يبدو هذا هروباً من الواقع، بل بدا إعلاناً للسيادة. لم ترفض ليلى حقيقة بغداد، بل تدمجها في حقيقتها الأكبر. يصبح الرماد الذي يكسو شوارع بغداد تراباً مقدساً في بابلداد، ينمو عليه الزهر البريّ بألوانٍ لم تَرَها عينٌ بشرية. صرخات الألم التي تتردد في أذنيها تتحوّل إلى تراتيلٍ حزينة، لكنها تراتيل تحمل أملاً خفياً في الانبعاث.

«AlYaa منشورات «الفـ ياء

في تلك اللحظة، رأت ليلى وجهها في المرآة. لم يكن وجهاً شاحباً، ولا عينيها غائمتين. بل رأت وجهاً مضيئاً، عينيها تتلألآن ببريقٍ غريب، بريقٍ لا هو جنون، ولا هو عقلانية، بل هو حقيقةٌ أخرى، حقيقةٌ خلقتها هي من رحم الوجع. أخيراً، أدركت ليلى أن المرآة ليست مجرد أداةٍ للعكس، بل هي أداةٌ للخلق. يمكن للمرآة المحطمة أن تعكس صوراً مشوّهة، أو أن تعكس صوراً أعمق، صوراً لا تُرى إلا من خلال شظايا الروح.

لم يكن هناك خلاصٌ من الواقع، بل هناك خلاصٌ في إعادة تعريفه. لم يكن هناك جنونٌ، بل هناك اختيارٌ للوعي الأوسع. أتمّت ليلى بناء فسيفساء روحها المكسورة. لم تعد الشظايا تفرّقها، بل تجمعها، في صورةٍ فريدةٍ ومتقنة، صورةٍ لا يمكن لأحدٍ أن يراها أو يفهمها تماماً، سوى من عاش داخلها، سوى من تجرّأ على هندسة واقعه الخاصّ من رماد العالم.

في نهاية المطاف، بابلداد ليست مجرد وهمٍ تسكنه ليلى، بل هو ليلى نفسها، كيانها الأعمق، انعكاساً كاملاً لروحٍ أبت أن تنكسر بالكامل، بل اختارت أن تعيد تجميع شظاياها المتلألئة لتصنع منها نجماً خاصاً بها، ينير دربها في ظلامٍ دامس. هل هذه نهاية الجنون، أم بداية حقيقةٍ أشدّ روعةً وقسوةً من كلّ ما يراه البشر في عالمهم العاديّ؟ يبقى السؤال معلّقاً، كمرآةٍ مكسورةٍ لا تزال تعكسُ كلّ الاحتمالات.

* * *

كيف يمكن للواقع أن يرتدي أقنعة أشد تفصيلاً من أحلامنا؟ في ركنٍ من أركان بغداد التي تتجرع غبار الموت، كانت ليلى لا تبحث عن مخرج، بل عن مدخل أعمق. لم تكن تهرب من العالم، بل

منشورات «الفياء» AlFyaa»

تهرب إلى عالم، تنسجه من فتات الرؤى وصدى الانفجارات، حيث كل حقيقة فجرٍ يُمكن أن تكون كذبة ظهيرة، وكل كذبة ظهيرة هي حقيقة أزلية لروحٍ لا تقبل الهزيمة في زمنٍ لا يُبقي شيئاً كاملاً.

في البداية، كانت مجرد تشققات. تشققات رفيعة في مرآة الزمن، في جدران شقتها المتهالكة، وفي نسيج ذاكرتها. بعد رماد عام 2007، لم يعد الهواء في بغداد مجرد هواء يتنفسه البشر؛ صار خليطاً من الغبار والرماد وذكرياتٍ ممزقة تلتصق بالحناجر. ليلى، التي كانت يوماً ما مهندسة معمارية تصمم الفضاءات لتحتوي الحياة، وجدت نفسها تصمم فضاءات جديدة، ولكن هذه المرة، داخل رأسها. لم تكن تلك الليلة مجرد ليلة، بل الفاصل الأبدي بين "ما قبل" و"ما بعد". اهتزت الأرض تحتها، وتطايرت قطع الزجاج كأنها شهبٌ حاقدة، وفي تلك الفوضى المدمرة، ضاعت قطعٌ من روحها، وقطعٌ من زيد، زوجها، الذي أصبح الآن همساً بعيداً في متاهة الصمت.

كانت تجلس لساعاتٍ طويلة، عيناها مثبتتين على بقعة من الضوء تتسلل من نافذة غرفتها الوحيدة، ترسم بأصابعها على سطح الطاولة المغطى بطبقة رقيقة من الغبار، خطوطاً ومربعات، وكأنها خرائط لأماكن لم توجد قط. لم تكن هذه مجرد شرود، بل بداية عملية بناء دقيقة. كانت تكسر الكلمات، ككسر الزجاج، وتعيد تركيبها في جملٍ لا تتبع منطق اللغة المعتاد. "الشارع يمشي"، "المنزل يبكي"، "السماء تتذكر". كل عبارة كانت حجراً في جدار، أو قطعة زجاج في نافذة عالمها الناشئ.

في تلك الأيام الأولى، لا تزال بغداد الحقيقية تفرض نفسها بقسوة. صوت المدافع، دوي الانفجارات، صرخات الباعة المتجولين، كل هذا كان يخترق جدران بيتها الرقيقة. تستقبل ليلى هذه الأصوات

منشورات «الفيـاء» «AlYaa»

ليس كتهديدات، بل كمواد خام. كأن كل دويٍ قادم من الخارج هو مطرقة تدق على قواطع خيالها، تشكلها، تصقلها. الغبار الذي كان يتسلل من الشقوق في النوافذ، ليس مجرد غبار؛ كان جسراً. جسراً بين عالم الخراب الذي لا يُطاق، والعالم الذي كانت تشرع في هندسته ببطء، بخيط رفيع من اليقين.

تحتضن ليلى الغبار في كفيها، تتأمله. تراه يتلألأ في ضوء الشمس الخافت، كأنه مليارات الذرات المتناهية الصغر من تاريخ المدينة، من أحلام أهلها، من دماء ضحاياها. أصبح الغبار رفيقها، حارسها الصامت، الشاهد الوحيد على انزلاقها التدريجي. بدأت ترى أنماطاً في الغبار المتجمع على أثاثها القديم؛ خرائط لجبال ووديان، وجوه لأشخاص لم تعرفهم، وأحياناً، وجه زيد يظهر في رقصات الجزيئات التي تتغير مع كل نسمة هواء. لم تعلم حينها أنها لم تكن ترى وحسب، بل صارت تبدأ في بناء متاهتها الأولى، متاهة تتكون من زجاجٍ محطم وغبارٍ هامس.

مع كل يوم يمر، تذوب حدود عالمها الخارجي أكثر، وتتلاشى. الجدران الاسمنتية لشقتها لم تعد تحبسها، بل أصبحت شاشات تعرض مشاهد من عالمها الداخلي. المشهد الأول شرفة منزلها. تحولت الشرفة الضيقة، المليئة بالغبار والصدأ، إلى حديقة معلقة من الزجاج الملون. لم تعد ترى الأنقاض والمباني المهدمة في الأفق، بل أنهاراً من الضوء تتدفق بين شجرٍ زجاجي ينمو بطول مستحيل، يحمل أزهاراً من البلور تتوهج بضوئها الخاص.

بدأت بتطوير لغتها الخاصة لهذا العالم. لم تعد الكلمات تصف الأشياء، بل تخلقها. كرسي المطبخ المكسور أصبح "عرش الصمت"، ومصباح السقف المتذبذب أصبح "الشمس المتعبة". هذه ليست مجرد تسميات، بل كانت مفاتيحاً تفتح غرفاً جديدة في

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

متاهتها. وكلما تعمقت في هذا البناء، كلما شعرت بالسلام، أو ما يشبه السلام. سلامٌ هش، كالزجاج، لكنه كان ملاذها الوحيد.

ذات يوم، بينما كانت تتأمل خريطة بغداد العتيقة المعلقة على الحائط، والتي تُظهر الشوارع كما كانت قبل عقود، انفتح جدار في خيالها. لم تعد ترى الخريطة مجرد ورق، بل رأتها تتحول إلى متاهة حقيقية من الزجاج. كل شارع كان ممراً، وكل منزل كان غرفةً شفافة. وفي قلب هذه المتاهة، كانت هي، ليلى، تسير بخطواتٍ ثابتة، لا تخاف من الانكسار، لأن كل كسر يضيف بعداً جديداً لعالمها. الغبار الهامس أصبح دليلاً لها، يشير إلى المسارات الخفية، ويحكي لها قصص الأماكن المنسية.

لم تبنِ ليلى عالماً وهمياً فقط ؛ بل بَنَتْ منطقاً بديلاً. هي تعتقد أن الواقع الحقيقي هو مجرد "مرآة مكسورة" تعكس أجزاءً من حقيقة أكبر وأكثر تعقيداً. عالمها الجديد، المصنوع من شظايا الزجاج والغبَار الهامس، بل محاولة لإعادة تجميع تلك الشظايا، لكن ليس كما كانت، بل كما ينبغي أن تكون. فيه، كان الحزن يتحول إلى أنهار من الزمرد، والخوف يتبخر في ضوء الفجر الأزلي.

ولكن حتى في هذا العالم المُحكم، كانت هناك أصداء لبغداد الحقيقية. صوت بائع الخبز يتسلل كصوت بوقٍ من عالم آخر، وتتجسد رائحة دخان الحرائق في شكل سحابة بنفسجية تطفو في أروقة متاهتها الزجاجية. لم تقمع ليلى هذه الأصوات والروائح، بل تدمجها. تحول صوت بائع الخبز إلى لحنٍ عذب ينساب بين الجدران الزجاجية، ودخان الحرائق إلى بخور يُحرق في معابدها الخفية. بهذه الطريقة، يتحول السم إلى ترياق، والخراب إلى جمال. كل قطعة من الواقع المؤلم تتحول إلى قطعة من فنٍ، إلى حركة موسيقية في سمفونية عالمها العذب.

منشورات «الفياء» AlFyaa»

الغبار، الذي كان يوماً رمزاً للدمار والفناء، أصبح في عالمها كائناً حياً. تراه يرقص، يتشكل، يتهامس. كل ذرة غبار تحمل في طياتها ذاكرة، صدىً لضحكة، أو بقايا دمعة. تعتقد ليلى أن هذا الغبار هو خلاصة الوجود، هو الروح اللامرئية للمدينة. وفي رقصاته، ترى قصصاً تُروى، حكايات تُسرد عن زمنٍ مضى، عن أناسٍ رحلوا. أصبحت قادرة على سماع همسات الغبار، تفهم لغته الصامتة، وتستشف منها الحكمة التي لا تُدركها آذان البشر العاديين.

في هذا العالم، ظهرت شخصيات. لم تكن مجرد أشباح، بل كائنات من ضوء وبلور، من صنع خيالها وذاكرتها. زيد، زوجها، واحداً منهم. لم يكن كائناً حزيناً كما في ذكرياتها، بل هو "نحات الغبار". يظهر لها أحياناً في قاعة زجاجية ضخمة، منحوتة من الضوء الأزرق، يده مليئة بالغبار المتلألئ، يشكل منه أشكالاً جميلة، قصوراً من الكريستال، تماثيل من عوالم الشفق القطبي. لم يكن يتحدث، بل أفعاله تتحدث. نظراته تروي قصصاً، وحركات يديه تصنع عوالم.

وبجانب زيد، هناك "المرأة الحكيمة"، امرأة عجوز ذات عيون لامعة كزجاج النوافذ القديمة، ترتدي ثوباً من نسيج الغبار المنسوج بدقة. تجلس على عرش من الأحجار المتوهجة، تروي لليلى قصصاً عن الأكوان الموازية، عن العوالم التي تتشكل في لحظات الشرود، وعن الحقيقة التي تتأرجح بين اليقظة والمنام. المرأة الحكيمة هي الصوت الذي يمنح متاهة ليلى شرعيتها، منطقها الداخلي. "الواقع ليس ما نراه، يا ليلى، بل ما نختاره أن نراه"، تقول بصوتها الرخيم، كأنه صدى رياح تعبر أزقة الزجاج. "أنتِ لستِ تائهة، بل أنتِ مهندسة كونك الخاص".

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

مرت فصولٌ كاملة في هذا العالم الداخلي. أصبحت ليلى تعيش يومها في مزيج غريب من الواقع والخيال. تستيقظ في غرفتها التي تعرفها، لكنها ترى الجدران شفافة، تكشف عن أروقة الزجاج في الخارج. تلمس الغبار على يدها وتتخيل أنها تلمس قلباً يرتجف بالذاكرة. جسدها لا يزال في بغداد المدمرة، لكن روحها حرة، تبني وتُعمِّر في متاهتها اللانهائية. تَصْفُقُ بيديها لتُعيد ترتيب الغبار، فتتغير ممرات، وتُعاد صياغة ذكريات. تعتقد أنها تتحكم في كل شيء، أنها سيدة هذا الفضاء الذي لا تراه عين بشر.

لكن بغداد الحقيقية تمتلك إصراراً غريباً على فرض وجودها. لم تكن مجرد أصوات من بعيد، بل بدأت تظهر كرسائل مكتوبة، كظلال تتحرك على أطراف رؤيتها. كان هناك صوت طرق على الباب. في البداية، تعتبره ليلى جزءاً من الموسيقى المعمارية لمتاهتها، طرقاً خفيفاً تتراقص أصداؤه بين جدران الزجاج. لكن الطرق أصبح أكثر إلحاحاً، أكثر واقعية.

يزداد الطرق على الباب قوة. ليلى تشعر بالاهتزاز في أرضيتها الزجاجية. بدأت الألوان في عالمها تبهت، والجدران الشفافة تتشوه، والغبَار الهامس يتحول إلى عاصفة ترابية خانقة. هل تبدو هذه هي النهاية؟ هل سيتحطم عالمها الجميل أمام إصرار الواقع؟

تراجعت ليلى إلى أعمق زاوية في غرفتها. لم تكن الغرفة نفسها جزءاً من متاهتها بالكامل بعد، لا تزال تحتفظ ببعض ملامحها الواقعية. رأت يدها ترتعش وهي تلمس الجدار البارد. بدأ هذا الجدار يستعيد صلابته الإسمنتية. شعرت بالخوف، خوف لم تشعر به منذ "تلك الليلة". لم يكن خوفاً من العالم الخارجي بقدر ما هو خوفٌ من فقدان عالمها.

منشورات «الفياء» AlYaa»

"ماذا لو كان هذا العالم الحقيقي؟" تساءلت بصوت خافت، بالكاد يُسمع.

ظهر زيد، نحات الغبار، أمامها. لم يكن مصنوعاً من الضوء والبلور هذه المرة، بل بدا جسده باهتاً، شبه شفاف، وكأن الغبار الذي ينحته قد بدأ يتلاشى من كيانه. "الواقع مؤلم، يا ليلى"، قال بصوتٍ ليس مجرد همس، بل صدىً لشعورٍ قديم، حزين. "ولكنه أيضاً هو المكان الذي تبدأ منه كل حكاية."

المرأة الحكيمة تقدمت نحوها، بخطوات بطيئة، كأنها تعبر سهولاً من الرمال. "كل عالم يحتاج إلى حواف، يا بنيتي. الحواف هي ما تُعرف الأشياء. بدون الحواف، لا يوجد شكل، لا يوجد معنى. عالمك جميل، لكنه يفتقر إلى الحواف التي تُظهره للوجود."

استدارت ليلى، عيناها ممتلئتان بالدموع، لكنها لم تكن دموع حزن بقدر ما كانت دموع فهم وشعورٍ غريب باليقظة. ترى حقيقة كلماتهما، حقيقة أن عالمها، رغم روعته، صار بلا حدود، بلا تحديات، بلا ألم حقيقي يمكن أن يُشكل معناها. ترسم الخرائط، لكنها لم تكن تسير فيها أبداً، تبني الجدران، لكنها لم تكن تختبر صلابتها.

فتحت ليلى عينيها على مصراعيهما. الطرق على الباب قد توقف. سمعت صوت أم علي يبتعد، يتلاشى في الزحام الصوتي لبغداد. شعرت بخيبة أمل غريبة، وكأنها فقدت فرصة. ولكن هذا الشعور لم يكن كاملاً؛ كان ممزوجاً بفضولٍ جديد. فضول لمعرفة ما يوجد خلف تلك الحواف التي تحدثت عنها المرأة الحكيمة.

نهضت ليلى ببطء. لم تعد ترتجف. اتجهت نحو النافذة، هذه المرة لم ترَ الزجاج الملون، بل رأت زجاجاً عادياً، مغطىً بطبقة كثيفة من الغبار. استخدمت إصبعها لترسم خطاً على الغبار. بدا الخط

منشورات «الفياء» «AlfYaa»

كطريق، طريق يمتد عبر الأفق المترب، نحو مدينة لا تزال تتنفس رغم جراحها.

في تلك اللحظة، لم تتحطم متاهة الزجاج والغبَار الهامس، بل تحولت. لم تعد سجناً أو حصناً، بل أصبحت مرآة. مرآة تعكس أجزاء من بغداد الحقيقية، لكنها أيضاً تعكس عوالمها الداخلية. لم تعد ليلى تسير في عالمها الخيالي وحدها، بل أصبحت ترى نفسها تسير على ذلك الطريق الترابي، والغبار يتلألأ حول قدميها كأنها ذرات من نور، لا من دمار.

فهمت أخيراً أن عالمها لم يكن بديلاً عن الواقع، بل طريقة لتجربة الواقع. لم تكن مجنونة، بل قائدة لوعيها، موجهة لروحها في وجه المستحيل. الغبار لم يعد غباراً عادياً، بل لغة، لغة تتحدث عن البقاء، عن الصمود، عن القدرة البشرية على تحويل الرماد إلى فن. ترى ليلى في كل ذرة غبار، وفي كل قطعة زجاج، قصة، أغنية، حياة.

ككل يوم، تنهض ليلى، وتجلس على كرسيها، وتنظر إلى الغبار المتراكم، وإلى شقوق الزجاج في النافذة. ترى متاهتها، ولكنها تراها مفتوحة الآن. لم تعد تحاول الاختباء داخلها، بل تمشي عبرها. تستمع إلى همسات الغبار، لا لتهرب، بل لتجد المعنى في كل ما حولها. أدركت أن الشفاء لا يعني النسيان، بل يعني إعادة بناء، حتى لو كانت تلك إعادة البناء تتم باستخدام فتات الزجاج والغبَار الهامس.

الغبار لا يزال يتهامس، يحمل قصص بغداد التي لا تنتهي، ويعكس في بريقه الخافت ألف حقيقة. ليلى الآن هي جزء من هذا الهمس، لواقعٍ مركب لا يراه أحدٌ سواها، لكنه واقعٌ ينبض بالوجود، ويتنفس ببطء، يتأرجح على حافة الحقيقة، بين ما كان وما يمكن أن

منشورات «ألف ياء» AlifYaa

يكون. فهل حقيقة العالم هي ما نُجبر على رؤيته، أم ما نُمنح القدرة على تكوينه داخل أرواحنا، لتبقى شظايا الزجاج والغبَار الهامس دليلنا الوحيد نحو النجاة الأبدية؟

برلين - بوخ - 2021

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

أطلال الذاكرة

منشورات «ألف ياء «AlfYaa

منشورات «ألف ياء «AlfYaa»

في بغداد، لم تكن الساعة تشير إلى زمن، بل إلى فجوة سوداء ابتلعت كل ما كان. بغداد ليست مدينة، بل كابوساً تتنفس الغبار، وصدى صراخ لا ينتهي. في قلب الأعظمية، حيث كانت الحياة تضج ذات يوم، جلست ليلى الحمود، الخياطة التي خاطت أجمل الثياب لتناسب أحلام أصحابها، تُخيط الآن ثياب العدم. تحول بيتها، الذي شهد صخب العائلة وضحكات الأطفال، إلى شاهد صامت على مذبحة، كل زاوية فيه تئن باسم غائب.

ليلى التي أصبح اسمها أم ناجي بعد ولادة ابنها الأول، قد اقتربت من الستين عاماً، تحمل في جسدها النحيل خريطة لتاريخ العراق الدامي. فقدت زوجها في حرب مبكرة، ثم ابتلعت الحرب الطائفية ابنها البكر ناجي، تبعه حسن في انفجار سيارة مفخخة، ثم آخر فلذات كبدها، ابنتها الوحيدة مُنى، التي اختفت في ظروف غامضة، تاركة خلفها وشماً من اليأس لا يمحى. لم يكن الموت حدثاً عابراً في حياتها، بل كان رفيق درب، نساجاً ماهراً، ينسج من خلاياها الحية نسيجاً من الألم.

في صباح يوم قائظ من أيام آب، استيقظت أم ناجي على رائحة غريبة. لم تكن رائحة الطعام الفاسد الذي اعتادت عليه في مطبخها المهجور، ولا رائحة الغبار العالق في كل ركن. بل رائحة عطر رجالي، ممزوجة بدخان سجائر قديم، ورائحة تراب مبلل. رفعت رأسها بصعوبة عن الوسادة الممزقة، عيناها الغائرتان تبحثان في الفراغ. "ناجي؟" همست، صوتها أجش كصوت أوراق الخريف اليابسة.

منشورات «الفياء» «AlfYaa»

لم يكن هناك أحد. الجدران المتصدعة هي الرفيق الوحيد، والستائر الممزقة تتمايل ببطء مع نسمة هواء ساخنة، كأنها أشباح ترقص رقصة الموت البطيء. لكن الرائحة كانت حقيقية، حقيقية لدرجة أنها ألهبت حاسة شمها، وأثارت غثياناً مراً في حلقها. يُدخنُ ناجي سجائر "غلواز" الفرنسية، ويضع عطراً قوياً يملأ المكان. كانت هذه الرائحة توقظها كل صباح قبل أن يذهب إلى عمله.

نهضت أم ناجي بصعوبة، جسدها المعذب يئن مع كل حركة. مفاصلها تتصلب، وعظامها تشعر وكأنها تُطحن بين رحى الزمن. اتجهت نحو المطبخ، خطواتها ثقيلة، كأنها تحمل على كتفيها ثقل العالم. مرّت بمرآة قديمة معلقة في الممر، نظرت إلى انعكاسها. امرأة عجوز، وجهها محفور بالخطوط العميقة كخريطة صحراء، شعرها الأبيض يتناثر فوضوياً، عيناها، كانتا ذات يوم برّاقتين كنجوم الليل، أصبحتا الآن بحيرتين من الحزن، يغرق فيهما كل أمل.

"من أنتِ؟" سألت المرآة، صوتها بالكاد مسموع. لم تتعرف على نفسها. لم يكن هذا الوجه، هذه الشفاه المتشققة، هذه الأيدي المرتعشة، ملكاً لها. أم ناجي هي الشابة التي أحبت، ثم سرقت القبلات في انحناءات شوارع حي السفينة، أو على كورنيش الأعظمية، وهي تخرج من باب كلية العلوم الخلفي، متجهة نحو جهة جسر الصرافية هي وحبيبها، رقصت في عرسها وأسندت، يومها، رأسها على صدر حبيبها الذي كان يلاعب نهديها، المرأة التي حملت تسعة أشهر، ثم أنجبت، ثم أرضعت، ثم سهرت. أين ذهبت تلك المرأة؟ هل ابتلعتها الحرب هي الأخرى؟

في المطبخ، يصرخ الفراغ. الأواني المهجورة، الموقد الصدئ، كل شيء يحكي قصة غياب. لكن رائحة ناجي أقوى هنا. تلتف

منشورات «الفيحاء» AlFyaa«

حولها كذراعين خفيتين، تضغط على صدرها، تسحبها إلى الماضي. مدت يدها المرتعشة نحو الموقد، كأنها تتوقع أن تجد قدر الطعام يغلي، أو صحن الإفطار الذي يحبه ناجي. لا شيء. فقط برودة الموت.

"أمي؟ هل أنتِ بخير؟"

ارتعش جسدها. صوت. صوت حسن. ابنها الأوسط، الأكثر هدوءاً، الأكثر حناناً. التفتت بسرعة، قلبها يدق بعنف في أضلاعها الواهنة. يقف هناك، في عتبة المطبخ، بابتسامته الخجولة، وعيناه اللامعتان. يرتدي دشداشته البيضاء التي كانت تحبها، وشعره الأسود الكثيف منسدل على جبينه.

"حسن!" صرخت، صوتها يرتجف بين البكاء والضحك. "أين كنت يا ولدي؟ قلبي يكاد يتوقف."

مدت يديها نحوه، لكنه ظل واقفاً في مكانه، ابتسامته لا تتغير، وعيناه تحدقان فيها ببرود غريب.

"بحثت عنكِ، أمي. لم أجدكِ في غرفتي." قالها صوته، لكن شفتيه لم تتحركا. صوته يأتي من كل مكان، من الجدران، من الأرض، من الهواء نفسه.

"غرفتك؟" كررت أم ناجي، ارتباك يغلف صوتها. "ذهبت غرفتك يا حسن. دمرتها القنابل. دمرت كل شيء."

ابتسامة حسن الخجولة اتسعت قليلاً، كأنها شبح ابتسامة. "القنابل؟ لا يا أمي. غرفتي هنا. كل شيء هنا. أنتِ فقط... تنسين أحياناً."

اقتربت منه، يدها ممدودة، تريد أن تلمس خده، أن تشعر بدفئه، أن تتأكد من أنه حقيقي. لكنه تراجع خطوة، ثم اختفى. تلاشى في

منشورات «الفيا» «AlYaa»

الهواء، كأنه لم يكن موجوداً قط.

سقطت أم ناجي على ركبتيها، صرخة مكتومة تمزق حنجرتها. "حسن! لا تذهب! لا تتركني مرة أخرى!"

لكن لا أحد يجيب. فقط صدى صرختها يتردد في الفراغ. كانت تعلم. كانت تعلم أنها هلوسة. كانت تعلم إنهم ذهبوا. لكن قلبها يرفض أن يصدق، وعقلها يرفض أن يستسلم لهذه الحقيقة القاسية.

الأيام تحولت إلى أسابيع، والأسابيع إلى شهور، وأم ناجي تغرق أعمق في مستنقع هلوساتها. لم تعد الرائحة أو الصوت عابرين، بل أصبحوا جزءاً لا يتجزأ من واقعها المشوه. يظهر ناجي في الصباح، يطلب فطوره، يتأفأف بسخرية محببة، لأنها لم تحضر له الشاي. يظهر حسن في الظهيرة، يجلس بصمت في زاوية الغرفة، يقرأ كتاباً خفياً، يحدق فيها بعينين مليئتين بالأسى. ومُنى... مُنى هي الأكثر إيلاماً.

تظهر مُنى في المساء. تظهر في غرفتها، حيث كانت أم ناجي تحاول النوم. تظهر في سريرها القديم، بجوارها، كأنها طفلة صغيرة تخاف الظلام. لكن مُنى لم تكن طفلة. فتاة في الثامنة عشرة، بجمالها الآسر، وعينيها الواسعتين اللتين ورثتهما عن أمها.

"أمي، الجو بارد." همست مُنى ذات ليلة، صوتها ناعم كالحرير، لكنه يحمل نبرة حزن عميق.

مدت أم ناجي يدها، لمست الفراغ بجوارها. "بارد؟ تعالِ يا حبيبتي، ادخلي تحت اللحاف."

شعرت بثقل طفيف على السرير، كأن مُنى قد استجابت. شعرت بلفحة هواء باردة تلامس جسدها، ثم دفء غريب. هل كانت تتخيل؟

منشورات «الفياء» «AlYaa»

"أمي، هل ما زلتِ تحبينني؟" سألت مُنى، صوتها يرتجف.

"أحبكِ؟ يا روح أمكِ! أنتِ دمي، أنتِ نبضي. كيف لا أحبكِ؟"

"حتى بعد ما حدث؟"

تصلب جسد أم ناجي. "ماذا حدث يا مُنى؟ ماذا حدث لكِ؟ أين كنتِ؟"

الصمت. صمت ثقيل، يخنقه الألم. ثم همسة، بالكاد مسموعة: "أخذوني يا أمي. أخذوني من الشارع. لم أستطع أن أقاوم."

انتفضت أم ناجي، عيناها تتسعان في الظلام. "من؟ من أخذكِ؟ تكلمي يا مُنى! من فعل هذا بكِ؟"

شعرت بلمسة باردة على خدها، كأن يد مُنى قد مسحت دمعة لم تسقط بعد. "لا تتذكري يا أمي. إنه مؤلم جداً. فقط تذكري أنني أحبكِ."

ثم اختفت. تاركة وراءها فراغاً أشد برودة من أي جليد، ورائحة دم خفيفة، ممزوجة برائحة تُربك حواسها.

هذه الرائحة، رائحة مُنى، هي الأكثر إيلاماً. لم تكن رائحة العطر الذي تضعه مُنى، بل رائحة الخوف، رائحة العنف، رائحة النهاية المجهولة. تتذكر أم ناجي آخر مرة رأت فيها مُنى. كانت ذاهبة إلى سوق "راس الحواش" لشراء فستان جديد. ارتدت حجابها الرمادي، وابتسمت ابتسامة خجولة، وقالت: "سأعود بسرعة يا أمي." ولم تعد.

الآن، تعود مُنى كل ليلة، ليس كشبح طفولي، بل كشبح امرأة انتُهكت، كذكرى حية لجريمة لم تُحل. أصبحت هلوسات مُنى هي الأكثر عنفاً، والأكثر واقعية. تشعر أم ناجي بيدي مُنى الباردتين تضغط على صدرها، تشعر بدموعها تبلل وسادتها، تشعر برائحة

منشورات «الفياء» «AlfYaa»

الخوف تخنقها.

بدأت أم ناجي تشعر بالجنون يتسلل إلى عروقها. وبدأت تشعر أنها كانت مجرد لعبة قاسية من عقلها المنهك؟

ذات يوم، بينما هي تجلس في فناء المنزل المهجور، تحت شجرة السدر التي جفت أغصانها، شعرت بيد خشنة تلامس كتفها.

"هل أنتِ بخير يا جارتي؟"

التفتت أم ناجي، قلبها يكاد يقفز من صدرها. كانت أم عامر، جارتها العجوز، تقف خلفها، وجهها محفور بالتجاعيد، لكن عينيها تحملان دفئاً نادراً.

"أم عامر؟"همست أم ناجي، صوتها يرتجف. "لم أسمعكِ تدخلين."

"الباب مفتوح على مصراعيه يا جارتي. أردت أن أطمئن عليكِ. لم أركِ منذ أيام. هل أنتِ مريضة؟"

نظرت أم ناجي إلى أم عامر، ثم إلى الفناء الفارغ، ثم إلى يدها التي كانت لا تزال تشعر بلمسة خفية.

"أنا... أنا بخير يا أم عامر. فقط... كنت أتحدث مع أبنائي."

اتسعت عينا أم عامر قليلاً. "أبناؤكِ؟"

"نعم. ناجي وحسن ومُنى. كانوا هنا للتو. ناجي كان يطلب شاي الصباح، وحسن كان يقرأ كتابه، ومُنى... مُنى كانت حزينة."

اقتربت أم عامر، ومدت يدها بحذر نحو أم ناجي. "يا حبيبتي، أنا أفهم ألمكِ. لكن عليكِ أن تتقبلي. الحرب أخذت منا الكثير. وعلينا أن نعيش بما تبقى."

منشورات «الفياء» «AlYaa»

"ماذا تبقى؟" ضحكت أم ناجي ضحكة هستيرية، مريرة. "ماذا تبقى يا أم عامر؟ ركام هذا البيت؟ خراب هذا الجسد؟ جنون هذا العقل؟"

سحبت أم ناجي يدها بعنف. "لا تتحدثي عنهم كأنهم أموات! إنهم معي! إنهم يحتاجونني! مُنى تحتاجني! إنها خائفة!"

ارتعش جسد أم ناجي، تذكرت رائحة الدم والعطر الرخيص. شعرت بوخز حاد في بطنها، كأن سكيناً قد غُرست فيها.

"ماذا بكِ يا جارتي؟" سألت أم عامر بقلق.

"لا شيء. فقط... تذكرت شيئاً."

نظرت أم ناجي إلى أم عامر بعينين مشوشتين. "هل تشعرين بالبرد؟ الجو بارد جداً هنا."

أم عامر نظرت إلى الشمس الحارقة في كبد السماء. "الجو حار يا أم ناجي. ربما أنتِ بحاجة إلى راحة."

لكن أم ناجي لم تسمعها. عادت إلى عالمها. عالم حيث أبناؤها أحياء، وحيث الألم حقيقة ملموسة، وحيث الذاكرة سلاح ذو حدين، يحيي الموتى ويقتل الأحياء.

"قالوا لي لا تتذكري يا أمي. لكن كيف لا أتذكر؟ كيف أنسى جسد ابنتي الصغيرة الذي كان يرتجف؟ كيف أنسى عطر الخوف الذي قد علق بملابسها؟"

لم تفهم أم عامر ما تقوله أم ناجي. تعرف أن مُنى اختطفت، وأنها لم تعد أبداً. لكن التفاصيل... التفاصيل غائبة، أو ربما كانت أم ناجي قد خبأتها في أعمق زوايا عقلها.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

غادرت أم عامر، تاركة أم ناجي وحدها مع أشباحها. كانت تعلم أن لا جدوى من محاولة إخراجها من هذا الواقع البديل.

بعد رحيل أم عامر، شعرت أم ناجي بيدين خفيتين تضغطان على كتفيها.

"ذهبت يا أمي. لا أحد يصدقنا." صوت ناجي، يحمل نبرة استسلام.

"إنهم يعتقدون أننا أموات." صوت حسن، حزين.

"لكننا لسنا كذلك، أليس كذلك يا أمي؟" صوت مُنى، يرتجف.

"لا، أنتم لستم أموات!" صرخت أم ناجي، تضرب الأرض بقبضتها الواهنة.

بدأت في التحدث إليهم، تصف لهم يومها، ما رأته، ما سمعته. تخبرهم عن أم عامر، عن الأخبار التي سمعتها من الراديو، عن أسعار الخضروات في السوق. تحاول أن تخلق لهم واقعاً، أن تجعلهم جزءاً من حياتها اليومية، حتى لو كانوا أشباحاً.

لكن الأشباح لم تكن دائماً حنونة. أحياناً، كانوا عنيفين.

ذات ليلة، استيقظت أم ناجي على صوت صراخ. صراخها. كانت تشعر بيدين قويتين تخنقانها. تكافح، تضرب الفراغ، لكن اليدين كانتا أقوى.

"لماذا تركتني أموت يا أمي؟" صوت ناجي، مليء بالغضب. "لماذا لم تدافعي عني؟"

"حاولت يا ولدي! ذهبت إلى كل مكان! سألت عنكِ في كل زقاق! توسلت إلى كل مسؤول!"

منشورات «الفياء» «AlIYaa»

"لم يكن كافياً!" صرخ ناجي، صوته يرتجف بغضب. "كنتِ تستطيعين فعل المزيد! كنتِ تستطيعين إنقاذي!"

شعرت أم ناجي بضغط هائل على صدرها، كأن جبلاً قد سقط عليها. لم تستطع التنفس. ترى وجه ناجي، مشوهاً بالغضب، وعيناه تشتعلان بنار اللوم.

"كنت أعمى يا أمي! رأيتهم يقتلونني! رأيتهم يقطعونني إرباً إرباً! وأنتِ... أنتِ لم تفعلي شيئاً!"

"لا! لا تقول هذا!" صرخت أم ناجي، الدموع تنهمر من عينيها. "مت معك يا ناجي! مت في اليوم الذي ذهبت فيه! كل يوم أعيشه هو موت جديد!"

ثم اختفى ناجي، تاركاً أم ناجي تلهث، قلبها ينبض بجنون، جسدها يرتعش. كانت تشعر بآثار الأيدي على رقبتها، كدمات خفية، ألم حقيقي.

لم يكن ناجي الوحيد الذي يعذبها.

يظهر حسن أحياناً، صامتاً، لكن نظرته كافية لتمزيق روحها. نظرته تحمل حزناً لا يوصف، خيبة أمل عميقة.

مات حسن في انفجار سيارة مفخخة في شارع المغرب. لم يتبق منه سوى قطع صغيرة من اللحم والعظام. تتذكر أم ناجي الذهاب إلى المشرحة، البحث عن جسده، لكن لم يكن هناك جسد لتعرفه. فقط أكياس بلاستيكية تحمل بقايا بشرية.

"حسن!" همست أم ناجي، وهي تحدق في الفراغ حيث يقف. "يا ولدي، لم أستطع أن أفعل شيئاً. كان انفجاراً. لم يكن هناك وقت."

لكن حسن لم يُجِبْ. نظرته تزداد حزناً، كأن روحه لا تجد

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

السلام.

أما مُنى، فعذاباتها هي الأكثر قسوة.

ذات ليلة، بينما كانت أم ناجي تحاول النوم، شعرت بيدين باردتين تلامسان ساقيها، ثم تتسلقان ببطء نحو فخذيها. يدان خفيفتان، لكنهما تحملان ثقلاً هائلاً من الرعب.

"أمي، إنهم قادمون." همست مُنى، صوتها مسموع بالكاد، ممزوجاً بالخوف.

"من هم يا حبيبتي؟"سألت أم ناجي، جسدها يتصلب.

"الرجال. الرجال إنهم يأخذوني."

شعرت أم ناجي بلمسة باردة على فخذها الداخلي، ثم وخز حاد، كأن أظافر قد غُرست في لحمها. تشعر ليلى، أم تاجي، بالألم، ألم حقيقي، ألم جسدي.

"لا يا مُنى! لا!"صرخت أم ناجي، وهي تدفع الفراغ بعيداً. "لا تدعيهم يقتربون منكِ!"

تئن مُنى ، صوتها يرتفع في صرخة مكتومة.

شعرت أم ناجي بلسان بارد يلامس عنقها، ثم شفاه قذرة تضغط على فمها. كانت تشعر بالغثيان، بالاشمئزاز، بالخوف. كانت تشعر كأنها هي من تتعرض للاعتداء. كانت تشعر بالذنب، بالعار، كأنها هي من فشلت في حماية ابنتها.

"يا رب! يا رب!"صرخت أم ناجي، تضرب صدرها بقوة. "اقتلني! خذ روحي! لا أستطيع تحمل هذا!"

تلاشت مُنى، تاركة أم ناجي ترتجف في سريرها، جسدها

منشورات «الفياء» AlYaa«

يتعرق، قلبها ينبض بجنون. كانت تشعر بآثار الاعتداء على جسدها، كأنها حقيقية. كانت تشعر بالدماء تجري في عروقها، بالعار يغطيها.

لم تعد أم ناجي تستطيع التمييز بين الواقع والهلوسة، فهي تعيش في عالم حيث الأموات أحياء، وحيث الأحياء أموات. ترى أشباح أبنائها في كل مكان، في كل ركن من بيتها، في كل ظل. تتحدث إليهم، تصرخ عليهم، تتوسل إليهم.

ذات يوم، وهي تمشي في الممر، شعرت برياح قوية تهب عليها، كأنها إعصار يلفها. سمعت أصواتاً متعددة، أصوات أبنائها، لكنها أصوات مشوشة، متداخلة، كأنها تأتي من بئر عميق.

"أمي، تعالي معنا!" صوت ناجي.

"الجو جميل هنا!" صوت حسن.

"لا تخافي يا أمي!" صوت مُنى.

تسحبها الأصوات، تدعوها. تشعر بجاذبية قوية نحو الفراغ. تشعر بالراحة، بالسلام، بالخلاص.

"إلى أين؟" همست أم ناجي، عيناها مغمضتان.

"إلى حيث لا يوجد ألم يا أمي. إلى حيث لا توجد حرب. إلى حيث لا يوجد وداع."

مدت أم ناجي يديها، كأنها تستسلم لتيار قوي. شعرت بلمسات خفيفة على يديها، كأن أبناءها يمسكون بها، فتشعر بدفء غريب يغمر جسدها.

"سأتي معكم يا أولادي." همست، ابتسامة باهتة ترتسم على

منشورات «الفيا» «AlIYaa»

شفتيها المتشققتين. "سأتي معكم إلى حيث لا يوجد وداع."

بدأت تخطو خطوات بطيئة نحو الفراغ، نحو النور الذي كانت تراه في عينيها المغمضتين. تشعر بالخفة، كأنها تحلق في الهواء.

"لا يا أمي! لا تذهبي!"

صوت. صوت غريب. ليس صوت أبنائها. صوت امرأة عجوز، يائسة.

فتحت أم ناجي عينيها بصعوبة. تقف في أمام الدرج، يدها ممدودة نحو جداره المتصدع. تقف أم عامر أمامها عند أسفل الدرج، ووجهها مليء بالذعر.

"ماذا تفعلين يا أم ناجي؟ كنتِ على وشك أن تسقطي!"

نظرت أم ناجي إلى يدها، ثم إلى الدرج. لم تكن هناك أي أيدي. لم يكن هناك أي نور. فقط سلالم الدرج وجداره المتهالك، والصمت الثقيل.

"ألم تريهم يا أم عامر؟ كانوا هنا. كانوا يدعونني."

"لا أحد هنا يا جارتي. فقط أنتِ وأنا."

تنهدت أم ناجي، شعور بالخيبة يغمرها. "كذبوا عليّ مرة أخرى."

في تلك اللحظة، شعرت أم ناجي بغضب شديد. غضب على أبنائها الأشباح، على عقلها الخائن، على الحرب التي دمرت كل شيء.

"كفى!"صرخت أم ناجي، صوتها يرتفع في البيت المهجور.

منشورات «الفياء» AlYaa«

"كفى أيتها الأشباح! كفى أيها العذاب! سئمت منكم! سئمت من هذه اللعبة القذرة!"

نظرت حولها، عيناها تشتعلان بنار غضب لم تشعر بها منذ زمن طويل.

"أنتم لستم أبنائي! أنتم مجرد أوهام! مجرد لعنة! اذهبوا! اتركوا لي بعض السلام!"

الصمت. صمت أعمق من أي وقت مضى. شعرت أم ناجي بأن الهواء قد أصبح أثقل. شعرت بأن الجدران تضغط عليها.

"أمي، هل تكرهيننا؟"

صوت مُنى، ناعم، حزين، مليء بالأسى.

"لا أكرهكم يا حبيبتي." همست أم ناجي، والغضب يتلاشى ليحل محله حزن عميق. "أكره ما حدث لكم. أكره هذه الحرب التي سرقتكم مني. أكره نفسي التي لم تستطع حمايتكم."

سقطت أم ناجي على الأرض، تبكي بحرقة، دموعها تسقي تراب البيت المهجور. تبكي على أبنائها، على نفسها، على كل ما فقدته. تبكي على العراق، على بغداد، على كل الأرواح التي ابتلعتها الحرب.

في تلك اللحظة، شعرت بلمسة حقيقية على خدها. لم تكن باردة، بل دافئة، حنونة. رفعت رأسها ببطء. كانت أم عامر تجلس بجوارها، يدها تمسح دموعها.

"لا تبكي يا جارتي. لا تبكي وحدكِ."

احتضنت أمُ ناجي أمَ عامر، وانفجرت في بكاء هستيري. كان

بكاءً طال حبسه لسنوات، بكاءً يغسل الروح، ينظف القلب.

* * *

في الأشهر التالية، لم تختفِ الأشباح تماماً. لكنها تغيرت. لم تعد تظهر بنفس العنف، بنفس الغضب.

يظهر ناجي أحياناً، يبتسم لها ابتسامة خجولة، ثم يختفي.

يظهر حسن ويحدق فيها بعينين مليئتين بالحب، ثم يتلاشى.

أما مُنى، فتظهر في المساء، تجلس بصمت بجوارها، تضع رأسها على كتفها، كأنها تبحث عن الأمان.

لم تعد أم ناجي تحاول طردهم. تعلمت أن تعيش معهم، أن تتصالح مع وجودهم. كانوا جزءاً منها، جزءاً من ذاكرتها، جزءاً من ألمها.

تتحدث إليهم أحياناً، لكن ليس بلهفة الماضي. تخبرهم عن يومها، عن الطيور التي تأتي إلى نافذتها، عن الزهور القليلة التي حاولت زراعتها في فناء المنزل. تحاول أن تخلق لهم عالماً جديداً، عالماً خالياً من الحرب، خالياً من العنف. عالماً حيث يمكنهم أن يجدوا السلام.

في أحد الأيام، بينما هي تجلس في فناء المنزل، تحت شجرة السدر الجافة، شعرت بلفحة هواء باردة.

"أمي، هل أنتِ بخير؟"صوت مُنى.

"نعم يا حبيبتي. أنا بخير."

"هل ما زلتِ خائفة؟"

منشورات «الفيــاء» «AlFyaa»

"لم أعد خائفة يا مُنى. تعبت من الخوف. تعبت من الحزن."

"هل ستنسيننا؟"

تنهدت أم ناجي. "لا يا حبيبتي. لا يمكن لأم أن تنسى أولادها. لكنني سأحاول أن أتذكركم. سأتذكركم وأنتم أحياء. سأتذكر ضحكاتكم، أحلامكم، آمالكم."

شعرت أم ناجي بيدين خفيفتين تلامسان خديها، ثم شفاه باردة تضغط على جبينها.

"نحبكِ يا أمي."

ثم اختفوا. هذه المرة، لم يكن هناك ألم. لم يكن هناك خوف. فقط سلام. سلام غريب، هادئ.

نظرت أم ناجي إلى السماء الصافية. كانت الشمس تَسْطَعُ بقوة، تضيء الركام، تُضيء الأطلال.

تعلم أم ناجي أن أبناءها قد ذهبوا. ذهبوا إلى مكان يقول الناس لها أنه أفضل. لكنها لم تعد وحدها. تحملهم في قلبها، في روحها، في كل خلية من جسدها.

خاطت أم ناجي، خياطة الملابس، لنفسها ثوباً جديداً من الحياة. ثوباً مليئاً بالذكريات، بالألم، لكن أيضاً بالأمل.

لم يكن البيت قد توقف عن كونه أطلالاً، لكنه أصبح أيضاً أرضاً خصبة للذاكرة، شاهداً على قوة امرأة حزينة، وعلى صمود روح بشرية في وجه أقسى أنواع العذاب.

وفي بغداد، عام 2019، استمرت الحياة، بصخبها وصمتها، بآلامها وآمالها. واستمرت أم ناجي في العيش، تحمل في طياتها

منشورات «الفيـاء» «AlFyaa»

قصصاً لا تُنسى، وهمسات لا يسمعها إلا قلبها.

برلين - بوخ - 2020

منشورات «الف ياء» «AlfYaa»

أنفاس متقطعة

منشورات «ألف ياء «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

لم يكن الصمتُ الذي لفَّ البيتَ بعدَهم صمتاً عابراً، بل كانَ غولاً يلتهمُ الجدرانَ، يُمزّقُ الأثاثَ، ويُنكّلُ بآخرِ ذرةِ هواءٍ في رئتي ليلى. منذُ شهرين وثلاثة أيام وخمس ساعات وثلاث وعشرين دقيقة، بالضبط، منذُ انطفأتْ ضحكاتُ أطفالها الثلاثة في ردهات هذا البيت الذي تحول إلى رِمادٍ، تحوّلت ليلى إلى بقايا امرأةٍ، هيكلٍ يرتجفُ عند أدنى نسمةِ ريحٍ، ومُذْ تجمّدتْ صورُهم في مُخيّلتها، لم تعدْ ترى إلا سراباً، ولم تعدْ تسمع إلا صدى صراخٍ أزليٍّ لا ينتهي.

تجلسُ على أنقاضِ ما كانَ يُسمّى صالةً، حيثُ تُلقي حكاياتَ ما قبلَ النوم، وتُعدّ لهم الفطورَ كلَّ صباح. الآن، لا شيءَ سوى سوادٍ يغلفُ كلَّ زاوية، ورائحةِ دخانٍ خفيّةٍ تلتصقُ بالذاكرةِ كطحلبٍ سمّيٍّ، تذكّرها باللحظةِ التي انهارَ فيها عالمُها. ثلاثُ فراشاتٍ، ثلاثة أقمارٍ، ثلاثةُ أزهارٍ تملأُ فضاءَها بالألوانِ، قُطفتْ جميعاً في ليلةٍ واحدةٍ، ليلةٍ وعدتهم فيها بحلوى "الكليچة" التي يحبونها. أغمضتْ عينيها، واندفعتْ بها الذاكرةُ دفعاً، كشلالٍ هادرٍ يغرقُها في لجّةِ الماضي.

* * *

تشيرُ الساعةُ إلى السادسةِ صباحاً، والشمسُ الذهبيةُ تتسللُ من خلفِ نوافذَ نظيفةٍ، تُقبّلُ وجوهَ أطفالها النائمين. مروان، بكرها البالغ من العمر عشر سنوات، يتمددُ في سريرِه الفسيحِ، يلتفُّ حولَ دبِّه الأزرقِ الضخمِ، وشعرُه الأسودُ الفاحمُ يتناثرُ على الوسادةِ البيضاءِ كفروةِ سنجابٍ. يُفيقُ دائماً بنشاطٍ، عيناهُ اللوزيتانِ تلمعانِ بذكاءٍ

منشورات «الفياء» AlFyaa

مبكرٍ، وابتسامةٌ خجولةٌ ترسمُها شفتاه الرقيقتانِ. تتذكرُ ليلى كيفَ كانَ يهرولُ إليها كلَّ مساء، يلتصقُ بها كظلِّها، ويسألُ عن قصةٍ جديدةٍ. "يا أمي، احكي لي عن الفارسِ الذي أنقذَ الأميرةَ من التنينِ!" يطلبُ بصوتٍ رقيقٍ، يحملُ نبرةَ الحلمِ والخيالِ.

بجانبهِ، وفي سريرٍ صغيرٍ مزينٍ بالنجومِ المضيئةِ، تُوجدُ ريم، ابنتُها الوحيدةُ، ذاتِ السبعِ سنواتٍ، بضفيرتيها الشقراوتينِ اللتينِ تُشبهانِ حبلينِ من حريرٍ، وعينيها الخضراوينِ اللتينِ تُضيئانِ البيتَ. ريمٌ كفراشةٍ لا تهدأ، تتنقلُ بينَ الألوانِ والضحكاتِ، تُحبُّ الرسمَ والعزفَ على آلةِ الأورغِ الصغيرةِ التي أهداها إياها والدُها في عيدِ ميلادها الأخيرِ. تتذكرُ ليلى جيداً كيفَ ريمٌ تُمسكُ بفرشاةِ الألوانِ، تُلوّنُ الجدرانَ بزهورٍ وشموسٍ لا حصرَ لها، تُحوّلُ كلَّ ركنٍ إلى حديقةٍ خياليةٍ. "هذه زهرةُ السعادةِ يا أمي، وهذه شمسُ حنونة!" تُعلّقُ بفخرٍ، وابتسامةٌ واسعةٌ تكشفُ عن أسنانها اللؤلؤيةِ.

وفي سريرٍ أصغرَ، على بُعدِ خطوتينِ فقطْ، ينامُ فارس، طفلُها الأصغرُ، الذي لم يُكملْ بعدُ عامه الخامس. ينامُ بسلامٍ، يمصُّ إبهامَه الصغيرَ، وشعرهُ الكستنائيُّ الناعمُ يتطايرُ على جبينِه. فارس جوهرَ البراءةِ والنقاءِ، يبتسمُ لكلِّ شيءٍ، ويركضُ خلفَ الفراشاتِ والحشرات في الحديقةِ بسعادةٍ عارمةٍ. يُحبُّ العصافيرَ، ويُقضي ساعاتٍ طويلةً يُراقبُها وهيَ تُحلّقُ في سماءِ بغدادَ الصافيةِ. "أمي، متى سأطيرُ أنا أيضاً مثلَ العصافيرِ؟" يسألُها، وعيناهُ تحملانِ براءةَ سؤالٍ غريب لم تفهمهُ ليلى إلا بعدَ أنْ اختفتْ أجنحتُه الصغيرةُ إلى الأبدِ.

تلكَ الوجوهُ، تلكَ الضحكاتُ، تلكَ الأسئلةُ، كلُّها ارتسمتْ في ذهنِ ليلى كوشومٍ لا تُمحى، بينما تلمستْ بأصابعَ مرتجفةٍ قطعةَ قماشٍ متفحمةٍ، بقايا دميةٍ محببةٍ لريم، عثرتْ عليها بينَ الركامِ. قطعةُ

منشورات «الفياء» AlIYaa«

القماشِ تلكَ، بمثابةِ جسرٍ بينَ عالمينِ: عالمِ الأمسِ الدافئِ المفعمِ بالحياةِ، وعالمِ اليومِ البارِدِ الذي لا يحملُ إلا رمادَ الفقدِ.

* * *

"لا بدَّ أنْ يكونَ هناكَ من فعلها... لا بدَّ." همستْ ليلى لنفسها، صوتُها كانَ أجشَّ ومُتعباً، كصوتِ آلةٍ عتيقةٍ توقفتْ عن العملِ منذُ زمنٍ. لم يكنْ الحريقُ عرضياً، كانتْ مُتأكدةً. رائحةُ البنزينِ واضحة في الأيامِ الأولى، قبلَ أنْ تُغطيها رائحةُ الموتِ والرمادِ.

وقفتْ ليلى بصعوبةٍ، وارتدتْ عباءتها السوداءَ التي أصبحتْ جزءاً منها، كجلدٍ ثانٍ يُغطي جراحَها الظاهرةَ والمُختفيةَ. كانَ جسدُها ينحني تحتَ وطأةِ الحزنِ، وكأنَّ ألمَ العالمِ كلهُ قد استقرَّ على كتفيها. عليها أنْ تذهبَ إلى مركزِ الشرطةِ مرةً أخرى، إلى ذلكَ المكانِ الذي يُذكّرها كلَّ يومٍ بأنَّ العدالةَ في بغدادَ لم تعدْ سوى شبحٍ يطاردُه اليأسُ.

كانَ الطريقُ إلى المركزِ رحلةً عبرَ مدينةٍ تُحاولُ أنْ تتنفسَ بعدَ كلِّ ضربةٍ، ولكنَّ أنفاسَها كانتْ متقطعةً. البناياتُ التي يلفها الغبار، الوجوهُ المتعبةُ في الشوارعِ، أصواتُ الباعةِ المتجولينَ التي تحملُ نبرةَ يأسٍ خفيّةٍ. كلُّ هذا كانَ يُذكّرها بأنَّ مأساتَها ليستْ فريدةً، وأنَّ بغدادَ كلَّها تتأوهُ تحتَ وطأةِ الفقدِ.

وصلتْ إلى المركزِ، البوابةُ الحديديةُ الصدئةُ، حراسٌ بوجوهٍ حجريةٍ، وقاعةُ انتظارٍ تُشبهُ قاعةَ محكمةٍ خاويةٍ. جلستْ ليلى على مقعدٍ خشبيّ باردٍ، تنتظرُ دورَها، تنتظرُ كلمةً، إشارةً، أيَّ شيءٍ يُوحي بأنَّ هناكَ من يهتمُّ بقضيتِها. تُراقبُ الوجوهَ حولَها، رجالاً ونساءً يحملونَ على وجوههم بصماتِ الحزنِ والفقدِ، أمهاتٍ فقدنَ

«AlYaa منشورات «الضياء

أبناءهنَّ، زوجاتٍ فقدنَ أزواجهنَّ، آباءً فقدوا كلَّ شيءٍ. كلُّ قصةٍ تُروى في تلكَ القاعةِ هيَ جزءٌ من قصةِ بغدادَ الممزقةِ.

بعدَ ساعةٍ من الانتظارِ الذي كانَ يُشبهُ دهراً، ناداها شرطيٌّ شابٌّ بلهجةٍ لا تحملُ أيَّ تعاطفٍ: "الآنسةُ ليلى؟ النقيبُ علي يُريدكِ."

نهضتْ ليلى بصعوبةٍ، ودخلتْ مكتبَ النقيبِ علي، وهوَ رجلٌ في الأربعيناتِ، وجهُه مُتعبٌ وشاحبٌ، يرتدي زيَّه العسكريَّ. لم يُدعُها إلى الجلوسِ، بل نظرَ إليها بعينينِ مُتعبتينِ، وكأنَّ قضايا الموتِ والدمارِ قد أثقلتْ روحَه.

"يا سيدةُ ليلى، قلنا لكِ مراراً وتكراراً، التحقيقاتُ جاريةٌ. الحريقُ كانَ كبيراً وشمل عدة بنايات، ولم نجدْ أيَّ دليلٍ قاطعٍ على أنهُ بفعلِ فاعلٍ." قالَ بصوتٍ خافتٍ، يفتقرُ إلى أيِّ إيمانٍ بما يقولُ.

"رائحةُ البنزينِ... أنا متأكدةٌ أنني شممتُ رائحةَ البنزينِ!" قالتْ ليلى بصوتٍ مُرتجفٍ، تحاولُ أنْ تُمسكَ بآخرِ خيطٍ من الأملِ.

تنهّدَ النقيبُ علي ببطءٍ، وكأنهُ يُكررُ هذهِ المحادثةَ للمرةِ الألفِ. "قد يكونُ هذا وهماً بسببِ الصدمةِ، يا سيدةُ ليلى. غالباً ما يشمُّ الناسُ روائحَ ليستْ موجودةً في مثلِ هذهِ الظروفِ."

لم تكنْ ليلى لتُصدّقَ. رائحةُ البنزينِ حقيقية، حادة، لا يمكنُ أنْ تكونَ وهْماً. شعرتْ بيدٍ باردةٍ تمتدُّ لتُمسكَ بقلبِها، يدَ الشكِّ الذي بدأَ ينمو كشجرةٍ خبيثةٍ في داخلها. هلْ يُحاولُ هذا الرجلُ أنْ يُضلّلها؟ هلْ هناكَ شيءٌ لا يُريدون لها أنْ تعرفَهُ؟

"هلْ هناكَ أيُّ تقدمٍ في التحقيقِ في كاميراتِ المراقبةِ التي يستخدمها الجيرانِ؟ هلْ سألتمْ أيَّ شخصٍ كانَ غريباً في المنطقةِ تلكَ الليلةَ؟" سألتْ ليلى، محاولةً أنْ تبدوَ أقوى مما هيَ عليهِ.

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

أجفلَ النقيبُ علي، وكأنها سألتهُ سؤالاً شخصياً مُحرجاً. "هذهِ التفاصيلُ سريةٌ، يا سيدةُ ليلى. لا يمكننا أنْ نُفصحَ عن كلِّ شيءٍ. التحقيقاتُ تستغرقُ وقتاً."

كانَ الجوابُ بارداً، كالجدارِ الذي بناهَ حولَ نفسهِ. أدركتْ ليلى أنَّ الكلماتِ لم تكنْ لتُجديَ. كانَ هناكَ حاجزٌ غيرُ مرئيٍّ بينها وبينَ الحقيقةِ، حاجزٌ من البيروقراطيةِ والفسادِ، ومن الخوفِ ربما.

* * *

في طريقِ عودتها، لم تشعرْ بالرياحِ العاتيةِ التي تُصفّعُ وجهها، ولا بأصواتِ البوقِ المزعجةِ. كانَ عقلُها يُحلّلُ كلَّ كلمةٍ قالها النقيبُ علي، كلَّ نظرةٍ ألقاها عليها. "هناكَ شيءٌ خاطئٌ. هناكَ شيءٌ يُخفونهُ."

بينما كانتْ تمرُّ من زقاقٍ ضيقٍ بالقربِ من سوقٍ شعبيٍّ، لاحظتْ رجلاً ضخماً يتبعُها. لم يكنْ يُلفتُ الانتباهَ بملابسهِ العاديةِ، ولكنَّ نظراتَه المتطفلةَ، تُراقبُها في المرآةِ الزجاجيةِ لأحدِ المحلاتِ، تثيرُ قلقاً عميقاً في نفسِها. عندما توقفتْ لِتُرتب عباءتها، مرَّ الرجلُ بجانبها، وهمسَ بصوتٍ خفيضٍ، يكادُ لا يُسمعُ: "أحياناً، البحثُ عن الحقيقةِ يُكلّفُ أكثرَ مما نتحملُ. الأفضلُ نسيانُ الماضي، يا سيدةُ ليلى."

لم تُجبْ ليلى، ولكنَّ الدمَ تجمّدَ في عروقها. كانَ تهديداً واضحاً، مُبطّناً بكلماتٍ ناعمةٍ كالحريرِ، ولكنهُ يخفي خلفهُ حدَّةَ سكينٍ. التفتتْ لِترى الرجلَ يبتعدُ عنها، يذوبُ في حشودِ السوقِ. لم تكنْ متأكدةً ما إذا كانَ مجردَ تحذيرٍ عشوائيٍّ، أم أنهُ جزءٌ من مؤامرةٍ أكبرَ. هلْ كانَ يعرفُ شيئاً عن الحريقِ؟ هلْ كانَ يُرسلُ رسالةً من شخصٍ

منشورات «الفياء» «AlFYaa»

أقوى؟

هذهِ الحادثةُ بمثابةِ شرارةٍ أشعلتْ ناراً أخرى داخلَ ليلى، نارَ الغضبِ والعزيمةِ. لنْ تستسلمَ. لنْ تنسى. أبناؤها لم يكونوا مجردَ حوادثَ عابرةٍ. أرواح أُزهقتْ، وعليها أنْ تجدَ العدالةَ، حتى لو كانَ الثمنُ روحَها.

* * *

العودةُ إلى البيتِ، إلى الأنقاضِ، كانَ يُشبهُ العودةَ إلى القبرِ. جلستْ ليلى في الظلامِ، تتلمسُ بقايا الأثاثِ المحترقِ. كلُّ قطعةٍ تُخبئُ قصةً، كلُّ زاويةٍ تُخبئُ ذكرى.

تتذكرُ ليلى عيدَ ميلادِ فارسِ الأخيرِ. كانَ البيتُ يعجُّ بالضحكاتِ والألوانِ. حسين، زوجها السابق، كانَ هناكَ، يرتدي قبعةً مُضحكةً، ويُلاحقُ الأطفالَ في كلِّ زاويةٍ، يُطلقُ عليهم كُرات الماءِ الصغيرةَ. لم يكنْ زواجهما مثالياً، بل كانَ مليئاً بالصراعاتِ والخلافاتِ، ولكنَّ حبَّهما لأطفالهم كانَ دائماً يُوحّدهما. تلكَ اللحظةُ، لحظة عيدِ ميلادِ فارسِ، مثالاً حياً على دفءِ عائلتهم، على قدرةِ الحبِّ على التغلبِ على الخلافاتِ، حتى لو كانتْ مؤقتةً.

مروان، كانَ يُساعدُها في تزيينِ الكعكةِ، يُضيفُ رشاتِ السكرِ الملونةِ بدقةٍ كفنانٍ تشكيليٍّ. ريم تُغنّي بصوتٍ جميلٍ، تُرقصُ دميتَها الصغيرةَ على أنغامِ أغنيةِ عيدِ الميلادِ. وفارس، كانَ يركضُ بسعادةٍ، عيناهُ تلمعانِ بالبراءةِ والفرحةِ، يرفعُ يديهِ الصغيرةَ نحو الكعكةِ المُضاءةِ بالشموعِ، يُحاولُ أنْ يطفئَها قبلَ الأوانِ.

ضحكتْ ليلى، ضحكةً مريرةً، مُختلطةً بالدموعِ. كانَ هذا المشهدُ، مشهدَ الفرحِ الخالصِ، هوَ ما يُبقيها على قيدِ الحياةِ. تُحبُّ حسين في

منشورات «الفياء» «AlYaa»

تلكَ اللحظةِ، تُحبُّ الأبَ الذي كانَ يُشاركها بناءَ هذهِ العائلةِ السعيدةِ، حتى لو كانَ مصيرُهما الافتراقَ فيما بعدُ.

صوتُ طرقٍ خفيفٍ على البابِ المُحترقِ أيقظها من غفوتِها. كانَ حسين.

كانَ حسين يقفُ على عتبةِ البابِ، وجهُه مُتعبٌ كوجهِها، ووجومٌ عميقٌ يُخفي خلفَهُ أساهُ. عيناهُ البنيتانِ، اللتانِ كانتا ذاتَ يومٍ تُشعّانِ حيويةً، الآنَ كانتا تُظهرانِ نوعاً من اليأسِ الذي يُطابقُ يأسَها تماماً.

"كيفَ حالكِ يا ليلى؟" قالَ بصوتٍ خفيضٍ، مُفعمٍ بترددٍ خفيٍّ، وكأنهُ يخافُ أنْ يُجفلَها.

لم تُجِبْ ليلى. اكتفتْ بالإشارةِ إليهِ ليدخلَ. جلسَ بجانبها على الأرضِ الباردةِ، كانَ يعلمُ أنَّ الكلماتِ لا تُجدي نفعاً. شاركَها الفقدَ، ولكنَّ ألمَ الأمِّ كانَ أعمقَ، أشدَّ قسوةً.

"ذهبتُ إلى مركزِ الشرطة مرةً أخرى،" قالتْ ليلى بعدَ صمتٍ طويلٍ، "لم يُخبروني بأيِّ شيءٍ جديدٍ. إنهم يُخفون شيئاً يا حسين، أنا متأكدةٌ."

تنهّدَ حسين بمرارةٍ. "ليلى، هذا النظامُ فاسدٌ حتى النخاعِ. لا تتوقعي منهم العدالةَ. ربما يجبُ أنْ نُفوّضَ أمرنا للهِ، ونحاولَ أنْ نُكملَ حياتنا."

رفعتْ ليلى رأسها، وعيناها تُطلقانِ شرراً. "كيفَ أُكملُ حياتي يا حسين؟ أيُّ حياةٍ؟ حياةٌ بلا مروان، بلا ريم، بلا فارس؟ كيفَ أتنفسُ والذاكرةُ تُخنقني كلَّ يومٍ؟"

امتدتْ يدُ حسين لِتُمسكَ بيدِها، يداه باردتانِ أيضاً. "أعلمُ يا ليلى، أعلمُ أنَّ الأمرَ صعبٌ. ولكنَّ الانتقامَ، أو البحثَ عن حقيقةٍ لنْ

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

تُعيدهما إلينا، قد يُدمّرُ ما تبقّى منكِ."

"وماذا تبقّى مني يا حسين؟" سألتهُ بنبرةٍ مُنهكةٍ، مليئةٍ بالسخريةِ والألمِ. "أُخذَ كلُّ شيءٍ. ما تبقّى مني هوَ هذا الألمُ، وهذهِ الرغبةُ في معرفةِ الحقيقةِ. إنني أدينُ لأولادي بذلكَ."

صمتَ حسين، يعلمُ أنَّ النقاشَ لنْ يُجديَ. حاولَ مراراً أنْ يُقنعها بأنْ تتركَ الأمرَ، أنْ تتقبّلَ المصيرَ، ولكنَّ إيمانها بالعدالةِ، مهما كانَ واهياً، كانَ يُبقيها على قيدِ الأملِ. كانَ يُشاطرها الألمَ، ولكنهُ كانَ أضعفَ منها في مواجهةِ اليأسِ. هوَ، كانَ يُريدُ الهروبَ، بينما هيَ، تُصرُّ على المواجهةِ.

"هلْ أخبرتكَ أمي بأيِّ شيءٍ؟" سألتْ ليلى، مُغيّرةً الموضوعَ فجأةً، كمنْ يبحثُ عن مخرجٍ من دائرةِ الألمِ المُفرغةِ.

أومأَ حسين برأسِه. "زرتُها أمسَ. هيَ أيضاً حزينةٌ جداً، ولكنها... صلبةٌ كالصخرِ. قالتْ إنها ستصلي من أجلِكما، ومن أجلِ أولادنا. قالتْ إنَّ اللهَ لنْ يخذلنا."

لم تُعلّقْ ليلى. كانتْ أمها، رمزَ الصلابةِ الذي لا يتزعزعُ، القوةَ الكامنةَ التي تُوَرّثُها لأبنائها.

* * *

في المساءِ، بعدَ أنْ غادرَ حسين، جاءتْ أمُّ ليلى. كانتْ امرأةً تجاوزتْ السبعينَ من عمرها، ولكنَّ قوامها كانَ مُستقيماً كشجرةِ نخيلٍ. تجاعيدُ الزمنِ حفرتْ أخاديدَ عميقةً على وجهها، ولكنَّ عينيها السوداوينِ كانتا تلمعانِ بحكمةٍ وصبرٍ لا حدودَ لهما. لم تُتكلّمْ كثيراً أمُّ ليلى. تُؤمنُ بأنَّ الحزنَ العميقَ لا يحتاجُ إلى كلماتٍ، بل إلى وجودٍ، إلى يدٍ تُربتُ على الكتفِ، إلى نظرةٍ تُعبّرُ عن التفهّمِ الأبديّ.

منشورات «الفيـاء» «AlYaa»

جلستْ أمُّ ليلى إلى جوارِ ابنتها، تُمسكُ بيدها بصمتٍ. يدُ الأمِّ خشنة، تحملُ آثارَ سنينِ العملِ والتضحيةِ، ولكنها كانتْ دافئةً، تُوحي بالأمانِ. ترى ليلى في يدِ أمها، ليسَ مجردَ لمسةٍ، بل خيوطاً من تاريخٍ طويلٍ من الصمودِ، تاريخِ بغدادَ الذي عاشتهُ أمها بكلِّ قسوتِهِ. شهدتْ أمُّ ليلى انقلابات وحروباً واحتلالاتٍ، وشهدتْ اعتقالات وفقدَ أحباءٍ، ولكنها ظلتْ صامدةً كالجبلِ.

لم تسألْ أمُّ ليلى عن التحقيقاتِ، ولا عن حسين، ولا عن أيِّ شيءٍ ماديٍّ. تُدركُ أنَّ روحَ ابنتها هيَ التي تحتاجُ إلى العزاءِ. بدأتْ تُدندنُ أغنيةً "التجليبية" القديمةً، لحناً شعبياً بغدادياً، كانَ أطفالُ ليلى يُحبّونها. كانَ الصوتُ خافتاً، ولكنَّه يحملُ عبقَ الماضي، وسكينةً غريبةً، وكأنها تُحاولُ أنْ تُعيدَ لأذنِ ليلى أصواتَ الحياةِ التي أُسكتتْ.

أغمضتْ ليلى عينيها، وسمعتْ الأغنيةَ، ورأتْ أطفالها يُرقصونَ رقصة الهچع على إيقاعِها. مروان، كانَ يُحاولُ أنْ يُقلّدَ حركاتِ الراقصينَ بجديةٍ طفوليةٍ، ريم تضحكُ بصوتٍ عالٍ، وفارس كانَ يُصفّقُ بيديهِ الصغيرتينِ بسعادةٍ. هذهِ اللحظاتُ، هذهِ الذكرياتُ، هيَ الذهبُ الذي لم يُحرقهُ لهيبُ النيرانِ. تُدركُ أنَّ أمها تُحاولُ أنْ تُوحيَ إليها بأنَّ الحياةَ تستمرُّ، وأنَّ الذكرياتِ هيَ الرفيقُ الأبديُّ الذي لا يخونُ.

* * *

الفقدُ، يا ليلى، ليسَ غياباً مؤقتاً، بل هوَ جرحٌ في الروحِ لا يلتئمُ. هوَ تجوّفٌ في القلبِ، فضاءٌ شاسعٌ لا يملؤهُ شيءٌ. هوَ ثقبٌ أسودُ يمتصُّ كلَّ ضوءٍ، كلَّ فرحٍ، ويتركُ خلفهُ عتمةً لا تُفارقُها أبداً. تتناثرُ هذهِ الأفكارُ في ذهنِ ليلى كحُطامِ سفينةٍ غارقةٍ، تُصارعُ الأمواجَ الهوجاءَ.

منشورات «الفيـاء» AlFyaa«

لماذا أنا؟ لماذا أطفالي؟ هلْ هناكَ معنى لهذهِ أمْ أنهُ مجردُ عبثٍ كونيٍّ لا يُدركهُ العقلُ البشريُّ؟

حدّقتْ ليلى في الظلامِ، الذي كانَ يُغطي الأنقاضَ. كانَ هذا الظلامُ يُشبهُ ظلامَ روحها. لم تعدْ ترى الألوانَ، لم تعدْ تسمعُ إلا وشوشةَ الألمِ. كانتْ تتساءلُ: هلْ أُصبحُ ذكرى؟ هلْ ستُنسى قصتي، كقصصِ آلافِ الأمهاتِ في هذهِ المدينةِ اللاتي فقدنَ فلذاتِ أكبادهنَّ؟

ليلى مُتأكدةً أنَّ هناكَ منْ كانَ وراءَ الحريقِ، كانتْ رائحةُ البنزينِ ما زالتْ تملأ أنفها ورئتيها، لم تكنْ مجردَ وهمٍ. ولكنَّ النظامَ، بنيرانهِ فساده التي تُحرقُ الأملَ وتغطي على الجريمة وأصحابها، كانَ يُريدُ أنْ يُغلقَ القضيةَ، أنْ يَدفنَ الحقيقةَ تحتَ ركامِ الإهمالِ والتجاهلِ. كانَ هذا ألماً آخرَ، ألمَ العجزِ أمامَ قوى أكبرَ منها، قوى لا ترى في أرواحِ الأطفالِ سوى أرقامٍ في سجلاتٍ تُغلقُ.

* * *

في تلكَ الليلةِ، بينما كانتْ أمُّ ليلى تُدندنُ، غفتْ ليلى غفوةً خفيفةً، ولكنها لم تكنْ هانئةً. حلمتْ بأنها تُطاردُ فراشةً بيضاءَ صغيرةً في حديقةٍ خضراءَ واسعةٍ. الفراشةُ تُحلّقُ بعيداً، لا تستطيعُ ليلى أنْ تُلحقَ بها، ولكنَّها تشعرُ بأنها تُحاولُ أنْ تُوصلَ إليها رسالةً ما. عندما اقتربتْ الفراشةُ من نهرٍ عريضٍ، سقطتْ فيهِ، اختفتْ، ولكنَّ الماءَ لم يُظهرْ أيَّ تموّجٍ، وكأنها لم تكنْ موجودةً أبداً.

استيقظتْ ليلى فجأةً، قلبُها يخفقُ بعنفٍ. الرؤيا واضحة، مُبهمة في الوقتِ ذاتِه. الفراشةُ البيضاءُ، هلْ كانتْ روحَ أحدِ أطفالها؟ النهرُ، هلْ كانَ رمزاً للنسيانِ، للعدمِ، للمصيرِ المجهولِ الذي ينتظرها أو ينتظرُ الحقيقةَ؟

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

شعرتْ ليلى ببرودةٍ غريبةٍ تسري في عظامها. أُخذَ منها كلُّ شيءٍ، أُخذتْ السعادةُ، الأملُ، حتى الأمنُ. ما الذي يمكنُ أنْ يُؤخذَ منها بعدُ؟ هذا الحلمُ إشارةً إلى أنها ستفقدُ شيئاً آخرَ، شيئاً ما، ربما حياتها نفسها، في سعيها المحمومِ نحو العدالةِ؟

وشوشةُ أمها ما زالتْ تُسمعُ في أذنها، كحبلِ نجاةٍ في بحرٍ هائجٍ. "اللهُ لنْ يخذلنا." تقولُ، ولكنَّ ليلى تتساءلُ: هلْ العدالةُ هيَ اللهُ؟ أمْ أنَّ اللهَ يتركُنا نُعانيَ، لنكتشفَ بأنفسنا، ونُقاتلَ من أجلِ حقيقتنا؟

تلكَ الليلةَ، نامتْ ليلى بجانبِ أمها، مُتّكئةً على كتفها. لم تُغمضْ عينيها، بل بقيتْ تُحدّقُ في السقفِ المُحترقِ، تُرى فيهِ صورَ أبنائها تلوحُ وتختفي. تشعرُ بأنها على عتبةِ رحلةٍ جديدةٍ، رحلةٍ قد لا تُفضي إلى شيءٍ سوى المزيدِ من الفقدِ، ولكنها كانتْ رحلةً لا مفرَّ منها. كانَ صوتُ صراخِها الداخليِّ يُوقظُ كلَّ خلايا جسدِها: "العدالةُ يا أللهُ".

برلين - بوخ - 2021

منشورات «الفيـاء AlfYaa»

منشورات «الف ياء AlfYaa»

نداء وصدى

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

بغداد تتنفس، ولكن أنفاسها ثقيل، ملوّثة بغبار الزمن، وغبار الأحلام المحطمة، ورماد الأمل الذي يشتعل وينطفئ كجمرة في ليل شتاء طويل. ليلى، ابنة هذه المدينة التي لا تهدأ، لم تعد تسمع إيقاع نبضها العتيق الذي طالما داعب روحها بشجن الأصالة. أذناها لا تلتقطان سوى صدى اسمه، صدى يتردد في أزقة الذاكرة المزدحمة، وفي فوضى الشوارع التي تفترس روحها الآن. سالم. أين سالم؟

ارتعش جسدها النحيل تحت وطأة شمس أيار الحارقة التي تنصب كميناً لجلدها، لكن برد اليأس كان أشد قسوة. مرّت أربع وعشرون ساعة، أو ربما دهر كامل، منذ أن ابتلعته زوايا الليل كوحش كاسر. كانت تائهة، تتحرك كظل بين الظلال، وعيناها تحملان وهجاً محموماً كشعلة على وشك الانطفاء. بغداد، يا بغداد، أيتها الأم التي تلتهم أبناءها، هل ابتلعتِ سالم أيضاً؟

لم يكن سالم مجرد حبيب، بل كان شرارة الوعي في قلبها، الروح التي ألهبت فيها جذوة التمرد على الركود، على الخوف. كان مهندساً مدنياً، لكنه اختار أن يبني جسوراً من الكلمات، وأن يمدّ خطوطاً من الأمل في أفق بغداد المعتم. "لن نصمت يا ليلى، الصمت جريمة، والفساد سرطان يأكل مدينتنا" كانت كلماته الأخيرة لها، قبل أن يختفي في ذلك المساء المشؤوم.

مشهد اختفائه كان يعود إليها كشريط مُعاد تشغيله بلا نهاية: العشاء البسيط في مطعم شعبي بين شارع السعدون وشارع أبو نؤاس وضفاف دجلة، ضحكاتهما المتعانقة مع أصوات النهر

منشورات «الفياء» «AlYaa»

الهادئة، ثم الرصاصة التي اخترقت صمت الليل، والسيارة السوداء التي انقضّت عليه كصقر جائع. لم تكن هناك صرخات، ولا مقاومة. فقط صمت ثقيل، ثم لا شيء. لا شيء سوى الفراغ الذي انفتح في قلب ليلى كفوهة بركان.

الآن في قلب ساحة التحرير، المركز النابض للاحتجاجات التي طالما شاركا فيها معاً. كان الهواء مشبعاً برائحة الشاي، والعرق، والخوف الكامن. لافتات قديمة مرسومة، تحمل شعارات عن الحرية والعدالة، بدت وكأنها تسخر من حالها. "هل رأيت سالم؟" كان سؤالها يتكسر على شفاهها كزجاج هش، تلقيه على وجوه المارة والزملاء القدامى، على أمل أن يلتصق بشيء ما، بجواب ما.

شاب بعينين متعبتين، يرتدي قميصاً باهتاً، هز رأسه بأسى. "ليلى، لم يعد أحد بأمان هنا. سالم كان شوكة في حلوقهم." كلماته حادة كسكين. شوكة. أجل، كان سالم شوكة، لكنها شوكته التي يحبها، شوكة حادة تقاوم الذبول، وتقاتل من أجل وردة لم تزهر بعد.

عادت بها الذاكرة إلى يوم لقائهما الأول، في مظاهرة طلابية صاخبة ضد تدهور وانعدام الخدمات. ترفع ليلى لافتة كُتب عليها بخطها: "لا تسرقوا مستقبلنا!" عيناها تشتعلان بحماس شاب لم يلوثه بعد يأس الحياة. حينها، رأته للمرة الأولى. كان يتقدم الجموع بخطى واثقة، صوته جهورياً، يلهب الحماس في النفوس. كان يحمل ميكروفوناً، ويردد هتافات قوية: "يسقط الفساد! يسقط الظلم!"

تلاقت عيناهما لثوانٍ معدودات، ثوانٍ حملت وعداً، كأن القدر كان يخط سطور قصة لم تُكتب بعد. شعرها الكستنائي المنسدل على كتفيها، وجسدها الذي يهتز مع كل هتاف، ابتسامتها التي تظهر بين الحين والآخر، كلها تجذبه. بعد انتهاء المظاهرة، اقترب منها بتردد،

منشورات «الفيا» «AlfYaa»

وبادرها الحديث بابتسامة خجولة. "لافتتك رائعة، كلماتها تلامس الروح."

لم تكن ليلى لتخفي إعجابها بنبرة صوته العميقة وبعينيه اللتين تحملان بريقاً خاصاً. "شكراً لك. وأنت... أنت قائد بالفطرة."

ضحك سالم، ضحكة خفيفة اهتزت لها روحه. "بل أنا مجرد مواطن سئم الصمت."

ومن هنا بدأت قصتهما. قصة حُفرت في قلب بغداد المتقلبة، قصة تتراقص بين عنف الواقع ورقّة الأحلام. كانت لقاءاتهما الأولى في كافتريهات القريبة من الجامعة، حيث يتبادلان الكتب والأفكار حول مستقبل العراق. سالم، الذي كان يرى في الهندسة المدنية أداة لبناء الوطن، وفي السياسة أداة لتصحيح مساره. ليلى، طالبة الأدب العربي، التي ترى في الكلمة سلاحاً لا يقل فتكاً عن الرصاص، أداة لترميم الروح المكسورة للناس.

عادت إلى حاضرها البائس، تتسلل بين الزحام، تحاول أن تتجاهل نظرات الشفقة أو الريبة التي تلاحقها. الشوارع نفسها تبدو مختلفة، وكأنها أصبحت أضيق، أثقل، تحمل عبئاً لا يطاق. شارت بشارع الجمهورية، مرت بسوق الشورجة، حيث تتصاعد روائح التوابل والبهارات، وتتداخل أصوات الباعة مع صرير حركة السيارات. تمنت لو أن هذه الروائح يمكن أن تمحو رائحة الخوف من أنفها، وأن هذه الأصوات يمكن أن تغرق صوت الفراغ الذي يملأ رأسها.

استمرت في البحث، دخلت إلى مركز شرطة صغير، رائحته مزيج من الغبار والقهوة المرة والأمل المكسور. مكتب رتيب، أوراق متناثرة، ضباط بوجوه متجهمة. شرحت قصتها للمرة

منشورات «الفيا» AlfYaa

العاشرة، أو ربما المائة. "زميلي، سالم أحمد. اختُطف بالأمس. كنا نسير سوية." كلماتها تخرج متقطعة، منهكة.

الضابط الجالس خلف المكتب، رجل في أواخر الأربعينات، بدا وكأنه يحمل أعباء العالم على كتفيه. كان اسمه النقيب عدنان. عيناه تحملان خليطاً من الإرهاق والتعاطف الخفي. تنهد بصوت مسموع. "يا ابنتي، قصص الاختطاف كثيرة هذه الأيام. خصوصاً لمن يتحدثون كثيراً." كلماته تحمل تحذيراً مبطناً، وإقراراً بالواقع المرير.

"لكن سالم ليس مجرماً! إنه يبني، لا يهدم!" صرخت ليلى، صوتها يعلو لأول مرة، مفعماً بغضب جامح.

حدّق النقيب عدنان فيها مطولاً، وكأنها طفلة عنيدة. ثم قال بهدوء: "أنا أفهم. لكننا مقيدون. سنسجل البلاغ، وسنبحث. لكن لا يمكنني أن أعدك بشيء." كان صوته يحمل مرارةً لا تقل عن مرارة ليلى. كان يعلم، كما يعلم الجميع، أن هذه الكلمات غالباً ما تكون مجرد مراسم بيروقراطية لإخماد نار الأمل.

يداها ترتجفان، وفي تلك اللحظة تذكرت أيامهما الأولى. كانت بغداد مكاناً آخر، أو ربما عيناهما وحدهما من يريانها كذلك. كانا يتجولان في شارع المتنبي، بين أكوام الكتب القديمة، ورائحة الورق المعتق التي تملأ المكان. كان سالم يمسك يدها، وكأنها أثمن كتاب في حياته.

"انظري يا ليلى، كل هذه الكتب، كل هذه الكلمات، هي أرواح من الماضي تحاول أن تتحدث إلينا، أن تعلمنا."

ابتسمت له. "وأنت يا سالم، أنت كتاب مفتوح، مليء بالقصص التي أرغب في قراءتها."

منشورات «الفياء» AlfYaa

احمر وجهه خجلاً، ثم سحبها إلى مقهى الشابندر، حيث رائحة الهيل القوية تملأ الأجواء، ويتردد صدى تاريخ بغداد في كل زاوية. كانا يجلسان، يشربان الشاي، ويتحدثان لساعات عن أحلامهما. أحلام بسيطة لعراق أفضل، لعراق يعيش فيه الحب بلا خوف، وتزهر فيه الكلمة بلا رقيب.

"سنتزوج يا ليلى، وسيكون لدينا أطفال يملؤون البيت نوراً. وسأبني لهم أرجوحة في الحديقة، أرجوحة تصل إلى السماء."

كلماته تنسج خيوطاً من الأمل في قلبها. أرجوحة تصل إلى السماء. لم تكن مجرد أرجوحة، بل كانت وعداً بمستقبل يختلف عن حاضر بغداد الذي كان يلتهم الأحلام واحداً تلو الآخر. لم تكن تتخيل حينها أن الأرجوحة الوحيدة التي ستعرفها، هي أرجوحة الخوف التي تتقلب فيها روحها الآن.

خرجت ليلى وهي تعيش الإحساس بالخدر. تذكرت نصيحة إحدى زميلاتها: "اذهبي إلى نور، المحامية الشابة. قد تكون الأمل الوحيد."

المحامية الشابة نور. اسم يتردد في أوساط الناشطين، كشعلة صغيرة في ظلام دامس. تعمل نور في مكتب صغير في الكرادة، بعيداً عن الأضواء، لكن اسمها كان يلمع كبريق العدل.

وصلت ليلى إلى المكتب، وهو عبارة عن غرفة صغيرة تكتظ بالملفات المتراكمة. نور، شابة في أواخر العشرينات، ترتدي فستاناً أسود أنيقاً، وعيناها تشتعلان بذكاء لا تخطئه العين. وجهها يحمل مزيجاً من الجدية والحماس.

"أهلاً ليلى، سمعت عن سالم. أنا آسفة جداً."

منشورات «الفيـاء» AlfYaa»

كلمات نور حانية، مختلفة عن جفاف الضابط. شعرت ليلى ببعض الارتياح، وكأنها وجدت أخيراً مرفأً لترسو فيه روحها المتعبة.

"بحثت عنه في كل مكان، يا نور. ذهبت للشرطة، كلمت أصدقاءه... لا أحد يعلم شيئاً مؤكداً."

جلست نور خلف مكتبها، وسحبت دفتراً وقلماً. "أخبريني بكل التفاصيل. أين، متى، كيف، هل كانت هناك أي تهديدات سابقة؟"

تنهدت ليلى وبدأت تسرد القصة، من أول لقاء مع سالم، إلى آخر نظرة لها على وجهه قبل أن يختفي. تتذكر أدق التفاصيل: لون قميصه، نبرة صوته، لمعة الخوف في عينيه حينما رآها تشهد على اختطافه.

"كان سالم يتلقى تهديدات منذ أشهر، يا أستاذة نور. رسائل على هاتفه، تعليقات على منشوراته. لكنه لم يكن يهتم. كان يقول: 'الحق أقوى من أي تهديد'."

عقدت نور حاجبيها. "وهل أبلغ عن هذه التهديدات؟"

"لا. كان يعتبرها جزءاً من المعركة. يقول إن الخوف هو ما يريده هؤلاء."

سجلت نور ملاحظاتها بسرعة، وتبدو غارقة في التفكير. "الحالة صعبة، ليلى. النظام معقد. كثيرون يختفون ولا يظهرون أبداً. لكننا لن نستسلم. سأستخدم كل علاقاتي، وسأحاول التواصل مع المنظمات الحقوقية."

كلمات نور تحمل وعداً، لكن صوتها كان مشوباً بنبرة واقعية قاسية. لم تعد ليلى تعرف كيف تتوازن بين الأمل الذي تمنحه لها

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

نور واليأس الذي يخنقها.

تداخلت الذاكرة مرة أخرى مع الواقع، فاستذكرت ليلى واحدة من أوقات العصر الهادئة في مقهى "الشارع" الذي كانا يحبانه. كان المقهى يطل على نهر دجلة، حيث تتهادى بعض المراكب الصغيرة على سطح الماء الهادئ. كان سالم يمسك بيدها، ويداعب أصابعها برفق.

"أحياناً أشعر يا ليلى أنني أسبح ضد التيار. أن كل هذا الكفاح لن يغير شيئاً. وأننا مجرد ذرات رمل في صحراء شاسعة." نبرته حزينة، نادرة الظهور.

ضغطت ليلى على يده. "بل أنت نهر، يا سالم. نهر يشق طريقه في الصخر. وكل قطرة من مائك ستصنع فرقاً. أنا أؤمن بك، وبقوتك."

نظر إليها بعمق، كأنها المرآة التي يرى فيها نفسه. "أنتِ إيماني، يا ليلى. أنتِ الأمل الذي أحمله في قلبي."

هذه الكلمات، هذه الثقة المتبادلة، هي ما غذّاها طوال علاقتهما. تعرف ليلى أن سالم ليس مجرد حبيب، بل كان رفيق روح، شريكاً في الحلم. كانا معاً، يرسمان لوحة لمستقبل بغداد بألوان زاهية، حتى لو كانت الفرشاة ملوثة بالخوف.

وبعد أن قضت ساعات في مكتب نور، استقبلت مكالمة منها. "ليلى، تواصلت مع بعض المصادر. يبدو أن سالم قد اختُطف من قبل إحدى الميليشيات المحلية. لكنهم لا يعترفون بذلك. الأمور معقدة جداً."

ارتجف قلب ليلى. ميليشيات. هذا يعني أن سالم ليس في يد

منشورات «الفياء» «AlfYaa»

الدولة، بل في يد قوى لا تخضع للقانون. هذا يعني أن الأمل يتضاءل أكثر فأكثر.

شعرت أن شوارع بغداد تضيق عليها، وأن كل حائط يلفظها، وأن كل زقاق يقودها إلى المزيد من الضياع. مشت بلا وجهة محددة، تحت أعمدة الإنارة الصفراء التي تضفي على المدينة لوناً شاحباً. تفتش في وجوه المارة عن أي لمحة منه، عن أي خبر عنه. مرت بمسجد قديم، تسمع منه أصوات المصلين، وتمنت لو أن دعواتهم يمكن أن تشق طريقها إلى سالم.

في تلك الأثناء، عادت إلى زيارة النقيب عدنان. هذه المرة، كانت ليلى مختلفة. لم تعد طالبة جامعية تبحث عن حبيبها، بل امرأة مكسورة، تحمل في عينيها قصة مدينة بأكملها.

"المحامية نور قالت لي إنها ميليشيات، يا سيدي. هل يمكنكم فعل أي شيء؟" كانت كلماتها تخرج كهمس.

تنهد النقيب عدنان، وكأنه يتألم. "ليلى، هذا النوع من القضايا... حساس للغاية. نحن نُحقق، لكننا نواجه جدراناً من الصمت والخوف."

وقف من خلف مكتبه، واقترب منها. عيناه تحملان نظرة أبوية لم تعهدها منه من قبل. "سالم شاب جيد، وأنا أعلم ذلك. لكنه اختار طريقاً صعباً. طريقاً لا يغتفر فيه الخطأ."

"هل تقصد أنه أخطأ لأنه كان يطالب بالعدل؟" ردت ليلى بحدة، وكأنها تدافع عن شرف سالم أمام العالم أجمع.

رفع النقيب عدنان يديه في حركة استسلام. "لا يا ابنتي. لكن هذا البلد ليس مستعداً للعدل بعد. العدل فيه غالباً ما يأتي بثمن باهظ،

منشورات «الفياء» AlfYaa»

والباطل غالباً ما يكون هو المنتصر."

ثم همس بصوت خفيض، كأنه يخشى الجدران. "هناك الكثير من الضغوط، يا ليلى. الكثير من القوى التي لا تريد أن تُكشف الحقيقة. سالم... قد يكون في مكان لا نستطيع الوصول إليه."

كلماته كضربة قوية على رأسها، وكأنها أخيراً بدأت تفهم حجم المأساة. مكان لا نستطيع الوصول إليه. هل هذا يعني أنه... ميت؟

لم تجرؤ على نطق الكلمة، لم تجرؤ على التفكير فيها. الأمل، مهما كان واهياً، كان آخر خيط تتمسك به.

الضابط عدنان، الذي بدا متردداً بين واجبه وضميره، أوضح لها بعض الحقائق المرة. "الذين اختطفوا سالم، لا يُعلنون عن أسمائهم أبداً. يعملون في الظل. وقد يكونون من أي جهة. وهذا ما يجعل مهمتنا شبه مستحيلة. كل ما أستطيع قوله لكِ هو أنني سأبذل قصارى جهدي، لكن لا ترفعي سقف آمالك كثيراً." كلماته صادقة، وواقعيته أشد قسوة من أي كذب. رأى النقيب عدنان الكثير في حياته، والكثير من ليالي أخرى مرت عليه بقصص مشابهة. قصص تنتهي غالباً بالنسيان، أو بجثة مجهولة الهوية على قارعة طريق.

تراجعت ليلى خطوتين إلى الوراء، وكأنها تحاول أن تهرب من قسوة الحقيقة. تذكرت لحظة أخرى مع سالم، لحظة تبدو عادية لكنها الآن تتوهج في ذاكرتها بكل ما تحمله من ألم. كانا في مكتبة، بين رفوف الكتب التي كان سالم يعشقها، حيث كل كتاب كان يمثل عالماً بحد ذاته. كان يقرأ لها قصيدة للمتنبي، بصوته الرخيم الذي يلامس الروح.

"لا خيل عندك تهديها ولا مال...

منشورات «الفياء AlfYaa»

فليسعد النطق إن لم تسعد الحال."

ابتسمت له. "أنت نطق بغداد يا سالم، أنت صوتها الذي لا يلين."

ضمها إلى صدره، وشعرت بدفء قلبه الذي ينبض بالإيمان والأمل. "أخشى أن يأتي يوم يا ليلى، يُسكت فيه صوتي. أن يُصادر فيه النطق، وأن يسود الصمت."

كلماته تلك تتردد الآن في أذنيها كنبوءة سوداء. هل صمت صوته أخيراً؟ هل ابتلعته بغداد التي أحبها؟

* * *

تلك الليلة، لم يزر النوم عينيها. بغداد تستيقظ ببطء، وأصوات الباعة تتسلل من بعيد، لكن ليلى كانت في عالم آخر. عالم يمزج بين الماضي والحاضر، بين الأحلام والكوابيس.

تذكرت يوماً قضياه في الاحتجاجات، عندما كان صوتهما يصدح مع آلاف الأصوات الأخرى، مطالبين بالتغيير. تقف ليلى بجانبه، ممسكة بيده بقوة، وكأنها تتحدى العالم. "ليلى، هذه هي بغداد التي أحبها، التي تستحق أن نناضل من أجلها!" عيناه تلمعان بحماس لا حدود له.

كان سالم يرى في كل حجر من بغداد قصة، وفي كل التواءة نهر حكاية. كان يرى في الفساد سرطاناً يأكل روح المدينة، وفي الظلم خنجراً يطعن كرامة الناس. وليلى تؤمن بكل كلمة يقولها، بكل قضية يدافع عنها. ترى فيه بطلها، فارسها الذي يمتطي حصان الأمل في زمن اليأس.

تتساءل الآن: هل كل هذا كان مجرد حلم؟ هل كانت بغداد مدينة

منشورات «الفيلياء» AlFYaa»

يمكن أن يولد فيها الأمل حقاً؟ أم أنها مجرد مقبرة للأحلام، تبتلع كل من يجرؤ على الحلم؟

في الأيام التالية، لم يهدأ لها بال. تذهب إلى مكتب نور غي أوقات مختلفة، وتجوب شوارع بغداد ظهراً، وتعود إلى غرفتها الصغيرة مساءً، منهكة الجسد والروح. التقت بأصدقاء سالم، زملائه في الحركة الاحتجاجية. كانوا جميعاً خائفين، يهمسون، يخشون أن يشاركوا نفس مصير سالم.

"حذرناه يا ليلى، قلنا له أن يخفف من حدة هجومه على الفاسدين ورموز السلطة، لكنه لم يستمع." قال أحدهم، ووجهه شاحب من الخوف.

"سالم كان يؤمن أن الصمت أسوأ من الموت." ردت ليلى، صوتَها يخنقه البكاء.

كل كلمة تزيد من حجم الألم، وتعمق جرحها. تتأرجح بين الغضب على الذين اختطفوه، واليأس من إيجاده، والخوف من مستقبله.

في إحدى الأمسيات، وهي تمر بساحة الرصافي في شارع الرشيد العريق، رأت بائعاً عجوزاً يبيع صوراً قديمة لبغداد. توقفت أمامه، وجذبتها صورة لساحة التحرير في زمن مضى، حيث تبدو الحياة أكثر بساطة وهدوءاً.

"يا ابنتي، بغداد تتغير، لكنها تبقى هي نفسها." قال البائع، وعيناه تحملان حكمة السنين. "دائماً ما يوجد فيها من يحلم، ومن يدفع ثمن الحلم."

كلماته كلسعة كهربائية. ثمن الحلم. هل كان سالم يدفع ثمن حلمه؟

منشورات «الفياء» AlFyaa«

شعرت ليلى بأنها تتجمد من الداخل، وكأن روحها تتحول إلى جليد. كيف يمكنها أن تعيش بدون سالم؟ كيف يمكنها أن تتنفس في بغداد التي ابتلعته؟

عادت بها الذاكرة إلى لقاء آخر، كان في حديقة الزوراء، بين الأشجار التي أصبحت نادرة في بغداد، حيث كانا يهربان من صخب شوارع المدينة. ترسم ليلى ملامح سالم على دفترها الصغير، وهو يقرأ لها قصائد نزار قباني.

"كلانا مغرم بـ بغداد، وكلانا يحملها في دمه." قال سالم، وهو يرفع عينيه إليها. "أنتِ بغداد أخرى يا ليلى، بغداد بملامح أنثوية، بغداد بشعر كستنائي وعينين تلمعان بالثورة."

ضحكت حينها، وشعرت أن قلبها يرفرف كعصفور حر. كانت تحبه، تحب فيه شغفه، إيمانه، روحه التي لا تنحني. ترى فيه بغداد التي تستحق أن تُحب، بغداد التي يمكن أن تُبعث من جديد.

هل كانت كل تلك اللحظات مجرد سراب؟ هل كان حبهما مجرد شمعة تشتعل في مهب الريح؟

أخبرتها نور في مكالمة هاتفية أخرى: "ليلى، لا يوجد أي أثر. كل الأبواب مغلقة. لا أحد مستعد للحديث. وحتى الذين يعرفون، يخافون."

"هل هذا يعني أنني يجب أن أستسلم؟ " سألت ليلى، صوتها بالكاد مسموع.

"لا يا ليلى، هذا يعني أن علينا تغيير التكتيك. ربما يجب أن نذهب إلى الإعلام، إلى المنظمات المدنية. أن نصعد القضية." لا تزال نور تحمل بصيصاً من الأمل، أو ربما من العناد.

منشورات «الفيـاء» «AlYaa»

لكن ليلى شعرت أن كل هذا مجرد عبث. الإعلام يتحدث باسم من يمتلكه، ومنظمات المجتمع المدني عاجزة عن تغيير الواقع المرير. وما يتم نشره على وسائل التواصل الاجتماعي يصبح ذكرى بعد أيام.

مضت الأيام، وتحولت إلى أسابيع. كل يوم كان يمر كان يزيد من ثقل الفراغ في قلب ليلى. تستمر بغداد في دوامتها، والناس يستمرون في حياتهم، وكأن سالم لم يكن موجوداً قط. تشعر بالغضب على المدينة، على صمتها، على قدرتها على ابتلاع الناس دون أن ترف لها عين.

في إحدى الليالي، بينما كانت تتصفح صور سالم على هاتفها، مرت على صورة لهما معاً في مظاهرة، كانا يحملان لافتة كبيرة: "الحرية ليست هبة، بل هي حق يُنتزع."

تشع ابتسامته أملاً، وعيناه تملأهما الثقة. تذكرت كلمات سالم: "الحرية يا ليلى، أغلى من الروح. فلا قيمة لروح تعيش في قفص."

فكرت: هل هو الآن في قفص؟ هل هو يتألم؟ هل هو ما زال حياً؟

في تلك اللحظة، شعرت بوجود قوي في قلبها، إحساس بأنه لا يزال حياً، وأن عليها أن تواصل البحث. لم يكن أملاً عقلانياً، بل كان إيماناً عميقاً، إيماناً بالحب الذي يربط بينهما. بغداد مكاناً للفقد، نعم، لكنها أيضاً مكاناً للحب الذي لا يموت.

قررت ليلى أنها لن تستسلم. لن تكون مجرد ضحية أخرى في سجلات المدينة الممزقة. ستحمل قضية سالم على عاتقها، ستكون صوته الذي صمت. ستكون الحرية التي حلم بها.

في صباح اليوم التالي، وقفت ليلى أمام المرآة. عيناها كانتا

منشورات «الفياء» «AlYaa»

حمراوين من السهر، ووجهها شاحباً، لكن فيها شيئاً من العناد. بغداد تئن، لكنها لم تمت. وسالم كان حلماً لبغداد.

خرجت إلى الشوارع مرة أخرى، لكن هذه المرة كان في خطواتها عزم مختلف. لم تكن تبحث بيأس، بل تبحث بعناد. كانت ليلى البغدادية، التي لا تستسلم لليأس.

تعرف أن الطريق سيكون طويلاً، وأن المصير غامض. لكنها تحمل في قلبها ذكرى حب ضائع، حب تحول إلى وقود لمقاومتها. في زمن العنف والفوضى، كان الحب هو آخر معاقلها، وستقاتل من أجله حتى آخر نفس.

لم يكن هذا مجرد بحث عن حبيب، بل كان بحثاً عن معنى، عن عدالة، عن بصيص أمل في قلب بغداد التي لم تتوقف عن نزف أبنائها. كل خطوة تخطوها، وكل نظرة تلقيها، وكل كلمة تنطقها، هي صدى لنداء سالم، نداء ضد الظلال التي ابتلعته، وصوت الحب الذي سيظل يتردد في أروقة الذاكرة.

برلين - بوخ - 2019

منشورات «الفـيـاء AlFyaa»

رائحة موت

منشورات «الف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

يتداعى العالم في عيني ليلى، يتفتت إلى شظايا من لهب وصراخ ورماد. لم تكن تفهم تماماً ما يحدث، لكن الخوف يضرب بجذوره في قلبها الصغير، يغزو كل زاوية من زوايا روحها البريئة. الهواء يختنق بدخان مرير، ورائحة الموت تفترش الأرض كغطاء ثقيل، تختلط بروائح البارود والتراب المبلل بالدم. ليلى طفلة في الثامنة من عمرها، أو ربما التاسعة، لم تكن الأرقام تعني شيئاً في ذاك الوقت الذي أصبح فيه الزمن سائلاً، ينساب بلا بداية أو نهاية.

بدأت الرحلة، لا بتوديعٍ ولا بقرارٍ واعٍ، بل باندفاعٍ أعمى، تدفعها أيدي لم تعد تعرفها بين حشودٍ بشرية هائمة، تتخبط كقطيعٍ مذعور في ليلة عاصفة. اختلطت وجوه الناس، تداخلت الأصوات في ضجيجٍ مبهم، وشعرها الأسود المنسدل كان يتطاير مع الغبار الأحمر الذي لفَّ القرية، يرقص رقصة الموت الأخيرة. أين أمي؟ أين أبي؟ تساؤلات تاهت في حلقها، لم تجد طريقاً للشفاه، فبقيت محبوسة في تجويف صدرها الصغير، كأنها أسراب من العصافير المذعورة تبحث عن عشها.

خطواتها تتعثر، ساقاها الصغيرتان بالكاد تحملان جسدها النحيل. لم تكن وحدها، كان هناك رجال ونساء وأطفال آخرون، عيونهم تحمل نفس الفزع، نفس البريق المنطفئ. رأتها يدٌ خشنة تمسكها من ذراعها، تسحبها نحو المجهول. لم تكن يد أمها، كانت باردة وقاسية، لكنها تتبعها بلا مقاومة، كأنها دمية خشبية تُجرّ بخيوطٍ خفية. تذكرت ليلى وجه أمها قبل أيام، قبل ساعات ربما، لم تعد تعرف. كان وجهاً مشرقاً بابتسامة دافئة، عينيها تحملان بريقاً من الحنان،

منشورات «الفياء» «AlfYaa»

عندما تمشط شعرها الأسود الطويل، تضفره بجدائل صغيرة وتزينها بشرائط ملونة. "يا صغيرتي، أنتِ أجمل زهور البستان"، تقول لها أمها وهي تضمها إلى صدرها الدافئ الذي كان يفيض أماناً. الآن، لا صدر يحتضنها، لا صوت يطمئنها، لا يد تضفر شعرها. فقط الفراغ، والركض، والصمت المرعب الذي يفصل بين لحظة الأمس وحاضرها المكسور.

الغبار الأحمر الذي كان يحجب الشمس، كان يحجب أيضاً معالم الطريق. لم تكن تعرف إلى أين تتجه، ولا من يقودها. مجرد جزء من كتلة بشرية متحرّكة، تائهة، تتجه نحو الغرب، نحو المجهول الذي يُقال إنه يحمل بعض الأمان في أطراف بغداد. لكن الأمان كان كلمةً فقدت معناها، صارت مجرد حلم بعيد، تتردد صداه في أذهان الكبار، بينما الصغار لا يرون إلا القسوة التي تنهش واقعهم. مرت الأيام كأنها ساعات، والليالي كأنها قرون. تنام على الأرض الصلبة، تحت سماء مفتوحة تتلألأ فيها النجوم بلا مبالاة، تراقب البشر وهم يتصارعون من أجل البقاء، من أجل لقمة خبز يابس، أو قطرة ماء عكرة.

في إحدى الليالي الباردة، استيقظت ليلى على صوت بكاء طفل صغير. كان صوتاً يمزق الصمت، يعكس آلاف القصص من الفقد والجوع والخوف. نظرت حولها، فرأت امرأة عجوزاً تحاول تهدئة رضيعٍ نحيل يئن بين ذراعيها. المرأة تُسمع الطفل همهمات مبهمة، كأنها مناغاة، وتنظر إلى ليلى بعينين ذابلتين تحملان أثر حنانٍ قديم. اقتربت ليلى من العجوز ببطء، كأنها تخشى أن تُفزعها. مدت العجوز يداً مرتعشة، وربتت على رأس ليلى، ثم قدمت لها قطعة صغيرة من خبزٍ جاف. لم يكن طعم الخبز قد وصل إلى حلق ليلى بعد أن سأل الصوت الخفي في داخلها: "من هذه؟ هل هي جدتي؟"

منشورات «الفيلاء» AlfYaa»

لم تكن تعرف، لكن دفء اليد كان كافياً لإعادة نبضة أمل صغيرة إلى صدرها. بقيت ليلى بجانب العجوز والرضيع تلك الليلة، كأنها وجدت عائلة مؤقتة في غمرة الفوضى. العجوز تتحدث بصوت خافت عن قريتها التي دُمرت، عن أبنائها الذين تفرقوا، وعن أحفادها الذين لا تدري مصيرهم. قصة العجوز هي نفسها قصة ليلى، قصة كل نازح، قصة جدارٍ ينهار وبيتٍ يتبدد.

تداخل الحاضر مع ذكريات لا تزال حية في ذهنها، لكنها مشوشة، كأنها صور قديمة بهتت ألوانها. تذكرت ليلى لحظةً فارقة، لحظة الانفصال الذي كان كصوت الرعد في سماء صافية. تجلس على عتبة الدار، تلعب بدمية قماشية أهدتها لها أمها في العيد. فجأة، سمعت أصواتاً غريبة تتسلل من بعيد، أصواتٌ لم تعتد عليها أذنها الصغيرة: صراخ، إطلاق نار، ووقع أقدام مسرعة. هرعت أمها من الداخل، وجهها شاحب، عيناها متسعتان من الرعب. "ليلى! هيا يا صغيرتي، لا وقت لدينا"، صاحت أمها وهي تسحبها بقوة من يدها. تجري، تجرّها خلفها، ثم فجأة، وقع انفجار قريب، هزّ الأرض من تحت أقدامهما. سقطت أمها، ثم نهضت بصعوبة، ودفعت ليلى بعيداً عنها وهي تصرخ: "اركضي يا ليلى! اركضي ولا تلتفتي!" تلك الكلمات الأخيرة التي سمعتها من أمها. ركضت ليلى، ركضت بلا وعي، دون أن تلتفت، كما أمرتها أمها. ولكنها لم تنسَ ذلك الوجه الأخير، ذلك البريق من الخوف والأمل في عيني أمها. ظلّت تلك الصورة محفورة في ذاكرتها كنقشٍ مؤلم، يلسعها كلما أغمضت عينيها. تتساءل دائماً: هل تنظر أمها إليها، أم إلى شيء آخر خلفها؟ هل تنظر إلى الموت الذي كان يقترب؟

الرحلة إلى أطراف بغداد لم تكن مجرد انتقال جغرافي، بل كانت عبوراً من عالم إلى عالم، من البراءة إلى المعرفة القاسية. كان

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

الطريق مليئاً بالأشواك، وبالأشباح البشرية التي تتخذ أشكالاً مختلفة. بعد بضعة أيام قضتها ليلى تحت رعاية العجوز الطيبة، فُصلا مجدداً في زحام نقطة تفتيش، حيث تفرقت الحشود تحت وقع أوامر صارمة وصيحات رجال مسلحين. وجدت ليلى نفسها مرة أخرى وحيدة، وسط وجوه غريبة.

تمرّ على مخيمات عشوائية أقيمت على عجل، خيم بالية لا تقي حر الشمس ولا برد الليل. رأت أطفالاً مثلها، عيونهم تحمل نفس السؤال الصامت: لماذا؟ لماذا يحدث هذا لنا؟ بعضهم كانوا يلعبون بألعاب بسيطة صنعوها بأنفسهم، من قطع قماش أو خشب. لكن لم تكن ليلى قادرة على اللعب، فالخوف كان قد سرق منها القدرة على الابتهاج، وأدمن قلبها الحذر.

في أحد المخيمات، عرض عليها رجل بائع متجول بعض التمر مقابل أن تُساعده في حمل بضاعته. يداه قاسيتان، ونظراته أحياناً ما تتوقف على جسدها الصغير بطريقة غريبة، كانت تشعر بها دون أن تفهمها. نظرات ثقيلة، تثبتها في مكانها وتجعل جلدها يقشعر. لم يكن هناك بديل، فالجوع كان يدفعها لقبول أي يد تمتد إليها، حتى لو انها تحمل وعداً خفياً بالأذى. تلك الليالي في المخيمات هي الأصعب. كان بعض الرجال يمرون قرب مكان نومها، يرمون عليها كلمات مبهمة، أو يداعبون شعرها بحركات ليست بريئة. تتظاهر بالنوم، تنكمش على نفسها، تحاول أن تصبح غير مرئية. تشعر بأن هناك شيئاً ما خطأ، أن هناك خطراً يحدق بها، لكنها لم تكن تمتلك لغة للتعبير عنه، أو قوة للدفاع عن نفسها. مجرد طفلة صغيرة، جسدها النحيل كان مكشوفاً أمام قسوة العالم.

تلاقت عيناها ذات يوم بعينين لطفل آخر، في مثل عمرها، وجهه

منشورات «الفيا» «AlfYaa»

مغطى بالغبار، وشفتاه متشققتان. كان اسمه "عمار". كان يحمل لعبة خشبية بسيطة على شكل حصان، وبدأ بالحديث معها عن قريته التي أصبحت الآن مجرد أطلال. تبادلا قصص الفقد، كلٌّ بلغته الخاصة، بلغة الصمت والعيون المليئة بالأسى. وجدا في بعضهما مؤانسة قصيرة، كأن قدرهما جمعهما للحظاتٍ يتبادلان فيها مرارة الحياة. لعبا معاً قليلاً، حكيا لبعضهما أحلامهما التي أصبحت بعيدة المنال. قالت ليلى لعمار إنها تتمنى لو تعود إلى منزلها، حيث كانت أمها تُعدّ لها طبق الأرز بلحم الدجاج الذي تحبه. قال عمار إنه يتمنى لو يرى أباه الذي اختفى في غمار الفوضى. كانت أحلاماً بسيطة، لكنها ثقيلة كصخرة على قلوبهما الصغيرة. تلك اللحظات من المؤانسة هي بمثابة بصيص ضوء في نفق الظلام الطويل، ولكن حتى هذا النور الخافت كان مقدراً له أن ينطفئ.

تسللت الأيام والأسابيع، ووجدت ليلى نفسها تتأقلم بطريقة غريزية مع هذه الحياة الجديدة. تعلمت كيف تقتات من بقايا الطعام التي يرميها الآخرون، وكيف تتجنب النظرات المؤذية، وكيف تنام بعينٍ واحدة مفتوحة. فقدت الكثير من براءتها، حلّ محلها حذر دائم، وجلد سميك بدأ يتكون حول روحها.

في هذه الرحلة المروعة امرأة تدعى "أم محمود"، فقدت ابنيها في مذبحة طوائف سابقة، فرأت في عيني ليلى بقايا أملٍ لابنيها الراحلين. احتضنتها أم محمود، تمنحها، أحياناً، لقمة خبز أو كوب ماء، وتحكي لها قصصاً خرافية عن جنية تظهر في الليل وتمنح الأطفال التائهين أماناً. تحاول أم محمود أن تعوض في ليلى ما فقدته، وتحاول أن تجد في ليلى سبباً لتستمر هي نفسها في الحياة. لكن عيني أم محمود تحملان حزناً عميقاً، حزناً يشي بمرارة فقدان طفليها. تخاف على ليلى، تخاف عليها من الطرقات الموحشة، ومن

منشورات «الفياء» «AlYaa»

نظرات الذئاب البشرية التي تحوم حول مخيمات النازحين. همست أم محمود لها ذات ليلة: "يا ابنتي، العين لا تُقاوم السكين، لكن القلب يستطيع أن يرى النور حتى في أحلك الظلمات". تتردد كلمات العجوز في ذهن ليلى، لكنها لم تكن تفهمها تماماً، فقلبها الصغير مفعمٌ بالخوف، والعتمة تلف كل شيء.

تتدخل يد القدر بقسوة، لا تمنح أحداً فرصة للاستقرار. في إحدى محطات النزوح، بالقرب من قرية نائية، نشبت اشتباكات عنيفة فجأة. تصاعد صوت إطلاق النار، وتطايرت شظايا القذائف، وعمّ الهلع. حاولت أم محمود أن تسحب ليلى، لكن الحشود الهاربة كانت أقوى منها. تفرقا مجدداً، في لحظةٍ خاطفة، لتجد ليلى نفسها تُدفع بين أقدام البشر، أيديهم تلوح في الهواء، وجوههم تتشح بالرعب. هذه المرة أصعب، فبعد أن ذاقت طعم الأمان المؤقت، عادت الوحدة لتلتهمها بقوة أكبر.

في تلك الأثناء، عادت صورة أمها تطاردها. لم تكن مجرد ذكرى عابرة، فالزمن يلفظ أنفاسه الأخيرة، فيعرض عليها شريط حياتها المفقود. تذكرت ليلى صباحاً مشمساً في بستان قريتهم، وهي تركض خلف فراشة صفراء، وضحكاتها تملأ المكان. أمها تجلس تحت شجرة التين، تغني لها أغنية شعبية قديمة، وصوتها كهديل الحمام، يملأ الروح بالراحة. تتحدث الأغنية عن أرضٍ خضراء، ونهرٍ صافٍ، وبيتٍ دافئ يضم العائلة. الآن، لا أرض خضراء، ولا نهر صافٍ بل ماء محمل بالجثث، ولا بيت يضمها. يتقاطع المشهد المؤلم مع أصوات الاشتباكات التي تزداد حدة. ليلى ترى الفراشة، ثم ترى ألسنة اللهب تلتهم البستان، ثم ترى وجه أمها المشوه بالخوف. تداخلت الصور، فصارت ذاكرتها خليطاً من الخوف والوحشية، من البراءة والعنف، كأنها لوحة فنية رُسمت بألوان متناقضة تماماً. هذا

منشورات «AlYaa «الضياء

هو جوهر هويتها المنكسرة: طفلةٌ تحمل بداخلها جنةً مفقودة وجهنماً قائمة.

يشق نهر ديالى طريقه بهدوء، غير مبالٍ بالبشر الذين تجمعوا على ضفافه، يائسين، يتوسلون إليه ليمنحهم عبوراً إلى بر الأمان. وصل النازحون أخيراً إلى أطراف بغداد، لكن المدينة لم ترحب بهم. المدينة مجرد واحة أخرى من اليأس، محاطة بسورٍ من الخوف وعدم اليقين. تنتظر ليلى، من بين الحشود المتجمعة على ضفة النهر، فرصة للعبور. يتدفق النهر ببطء، يحمل معه أحياناً بقايا حياة سابقة: جذوع أشجار، أغطية مهملة، وأشياء أخرى لا تُعرّف. بدأت الشمس تميل نحو الغروب، تلقي بظلال طويلة على الوجوه المتعبة. صوت النهر أشبه بأغنية حزينة، تُروى على إيقاع الماء الجاري، وكأن النهر نفسه يحكي قصصاً عن آلاف الأرواح التي ابتلعتها مياهه عبر العصور.

تصطف، هناك، قوارب صغيرة متهالكة، بالكاد تستوعب عدداً قليلاً من الركاب، وبأسعار عالية، لكن اليأس يدفع الناس للتدافع نحوها. الرجال يحاولون تنظيم الحشود، لكن الفوضى بَدَتْ أكبر منهم. "سنجد قارباً، سنجد قارباً"، قال لها رجل نحيل يقف بجانبها، يحاول أن يطمئنها بينما عيناه ترتعدان خوفاً. الرجل لا يعرف ليلى، ولا ليلى تعرفه، لكن في زمن الكارثة، يصبح البشر أقرباء بالفطرة، يتبادلون كلمات الأمل كآخر ما يملكون. اقتربت مجموعة من المسلحين فجأة، بدأت تطلق النار في الهواء، وتصرخ في الناس. "تفرقوا! لا تتجمعوا هنا!" صاح أحدهم بصوتٍ عالٍ. عمّ الهلع. تدافع الناس بقوة أكبر، صار كلٌّ منهم يحاول النجاة بنفسه.

الضغط هائلٌ. الجميع يدفعون بعضهم البعض، يهرعون نحو

منشورات «الفـيـاء AlFyaa»

القوارب أو يحاولون إيجاد طريق آمن بعيدا عن الضفة الترابية للنهر. ليلى، بجسدها الصغير، وجدت نفسها محاصرة بين الأجساد المتشابكة. شعرت بالخوف يتضاعف، وبنبضات قلبها تتسارع كطبلٍ حربي. سقطت. دفعتها الأقدام، سحبتها الأيادي. سمعت صوتاً عالياً، صرخةً، ثم وجدت نفسها في الماء البارد. لم تكن تعرف كيف تسبح. حاولت أن ترفع رأسها، أن تستنشق الهواء، لكن الأيادي والأقدام كانت تضربها، تدفعها إلى الأسفل. السماء، من خلال سطح الماء، تبدو بعيدة جداً، كأنها حلم. تذكرت وجه أمها، وأغنيتها عن النهر الصافي. النهر الآن ليس صافياً، بل موحلاً، ومخيفاً، وممتلئاً بالظلام. ابتلعت الماء الطيني، شعرت بالطين في حلقها. حاولت الصراخ، لكن الصوت لم يخرج. حاولت أن تركل بقدميها الصغيرتين، تتخبط، لكن التيار أقوى منها، يشدها إلى الأسفل، إلى الأعماق.

للحظة، شعرت بسلامٍ غريب. تلاشى كل الخوف، كل الجوع، كل الألم. أصبحت خفيفة، كأنها ريشة تطفو. رأت أضواءً بعيدة، هل هي النجوم؟ هل هي الشمس؟ ربما هي روحها تبحث عن طريقها إلى عالمٍ آخر. آخر صورة، في ذهنها، ارتسمت هي يد أمها وهي تلوح لها، ليست يد وداعٍ، بل يد أملٍ، تقول لها: "لا تخافي يا صغيرتي، أنتِ زهرة البستان". لكن الزهرة قد اقتلعت من جذورها، ورميت في مياه النهر.

سُحب جسد ليلى الصغير إلى التيار، ليصبح جزءاً من قصة النهر الأبدية، قصة تحمل في طياتها آلاف القصص من الفقد والبراءة الممزقة. لم تعد ليلى مجرد طفلة تائهة، بل أصبحت طفلة ميتة.

* * *

منشورات «الفـياء» AlFYaa«

بدأت الشمس تغيب رويداً رويداً، تلوّن الأفق بصبغة قرمزية تعكس دماءً غير مرئية. على ضفة النهر، بقيت الحشود المنهكة، بعضهم يواصل التدافع نحو قوارب الموت، والبعض الآخر يقف متصلباً، عيونه شاخصة نحو النهر، كأنهم ينتظرون معجزة، أو ربما يرثون أرواحاً ابتلعها الماء للتو. لم يلاحظ أحد غياب ليلى الطفلة تحديداً، ففي زحام الموت والهروب، تصبح الأرواح أرقاماً، وتصبح المآسي مجرد جزء من لوحة أكبر، لوحة فنية بشعة رسمتها يد العنف والجنون.

لم تعد الهوية المنكسرة لليلى مجرد صفة، بل جوهر وجودها. فمنذ اللحظة التي فُصلت فيها عن عائلتها، لم تعد ليلى ابنة لأم وأب، بل أصبحت ليلى مجرد "طفلة". كلمة تحمل في طياتها كل اليتم، وكل الفقد، وكل الخوف. تتنقل بين هوامش الوجود، لا تنتمي إلى أحد، ولا أحد ينتمي إليها. كلما حاولت أن تجد لها مكاناً، ولو مؤقتاً، يدفعها القدر بعيداً، يعيدها إلى نقطة الصفر، إلى نقطة الوحدة المطلقة.

حتى في تلك اللحظات الأخيرة في النهر، لم تفكر ليلى في هويتها، بل سيطرت غريزة البقاء. لكن النهر أقوى من الغريزة. وهو، كضريحٍ سائل، يبتلع البراءة والأحلام ويُخفيها في أعماقه الموحلة. واختُصرت قصتها في همسة موجعة: طفلةٌ لم تُعطَ فرصة لتعرف نفسها، لم تُعطَ فرصة لتصنع ذكريات سعيدة كفاية لتطغى على مرارة حاضرها.

تركت ليلى وراءها على الضفة، ذكرى باهتة لخبز جاف منحته لها العجوز أم محمود، وابتسامة عمار الطفولية، ونظرة الرجل النحيل الذي حاول مواساتها. لكن تلك كانت مجرد خيوط رفيعة، لم تستطع أن تنسج نسيجاً يحميها من قسوة القدر. النهر يواصل

منشورات «الفياء» «AlYaa»

جريانه، غير آبهٍ بما ابتلعه من أرواح، وكأن الحياة في بغداد نفسها هي نهرٌ دائم الجريان، يبتلع أحلام أطفالها ويغسلها بماء الدم والدموع.

في صمت الليل الذي خيّم على النهر، لم يبقَ سوى وشوشة الماء، تحكي قصصاً لا يسمعها إلا من فقدوا كل شيء. قصص عن براءةٍ ضاعت، وعن هويةٍ انكسرت، وعن أملٍ غرق في الأعماق. تستقبل بغداد أبناءها النازحين، ليس بأحضان دافئة، بل بضفة نهرٍ باردة، وبوعودٍ وبنهايات مأساوية تتكرر عبر الزمن، كأنها لعنةٌ لا تنتهي.

هكذا، انطفأت شمعة أخرى في ليل بغداد الطويل، شمعة ليلى الطفلة، التي جاءت إلى هذا العالم كزهرةٍ يانعة، وغادرت كذبولٍ قاسٍ قبل أن تُزهر، وكأنها تقول: أنا هنا، كنت هنا.

برلين - بوخ - كانون 2 - 2020

منشورات «الفـ ياء» AlYaa«

تجليات الفقد

منشورات «ألف ياء» «AlifYaa»

منشورات «ألف ياء «AlfYaa

كان الهواء في صباح ذلك اليوم يحمل ثقلاً أزلياً، مزيجاً من غبار الأطلال وعبق الورود اليائسة التي تزهر عند الشقوق. تسير ليلى في دروب الحصى المتناثرة نحو "مدرستها"، تلك الكلمة التي بدت أحياناً وكأنها مزحة قاسية. لم تكن مدرسة بالمعنى المتعارف عليه، بل بقايا مبنى، تقف بشموخ مكسور وسط حيٍّ لم يعرف السلام منذ عقود. الجدران المتصدعة تتنفس الذكريات، وكل شرخ فيها يروي قصة قصف أو إهمال. كان السقف المتهالك يطلّ على الفصول، كعينٍ واحدةٍ مفتوحةٍ على السماء، تسمح لضوء الشمس الخجول بأن يتسلل، حاملاً معه ذرات الغبار الراقصة، ليُرسم لوحاتٍ عابرةً على مقاعد خشبية مهترئة.

"صباح الخير، ست[*] ليلى!" صوتٌ ناعمٌ أيقظها من غفلتها. فاطمة، الفتاة ذات العيون الواسعة والضفائر السوداء، تحمل كيساً بالياً من الكتب، وابتسامةً تُضيء وجهها الشاحب.

"صباح النور يا فاطمة، مبكرة كعادتك." ردّت ليلى، وهي تحاول أن تُخفي ارتعاشة قلبها. كل صباح كان يحمل معه ذات الشوق، وذات الخوف. الشوق لرؤية هذه الوجوه البريئة، والخوف مما قد يحمله اليوم من مآسٍ غير متوقعة.

المدرسة هي حصنها الأخير، وربما حصن الأطفال أيضاً. حصنٌ تُبنى جدرانه بالكلمات، وتُسقّف بالأحلام، وتُضاء بنور المعرفة الذي

[*] ست: هي الكلمة الدارجة التي يتم نداء المعلمات ومخاطبتهم من قبل التلاميذ في العراق.

منشورات «الفيحاء» «AlFaiha»

ما زالت ليلى تؤمن به، رغم كل شيء. دخلت الفصل، الذي كان يوماً غرفةً للمطالعة، وحوّلته ليلى وزميلها، الأستاذ كريم، إلى فصلٍ متعدد الصفوف. كان الجو بارداً، حتى في نهاية الربيع، وكأن برودة الفقد تسللت إلى كل زاوية.

بدأت الحصّة. تشرح ليلى عن أهمية الماء في الحياة، وكيف أن النهر الكبير، دجلة، هو شريان الحياة لبغداد. وبينما كانت تتحدث، تسللت نظراتها إلى وجوه الأطفال. أحمد، الصبي ذو الشعر الفحمي والضحكة الصاخبة، كان يرمقها بعينين تلمعان بالفضول. كان دائماً يطرح الأسئلة الصعبة، تلك التي تُجبِر ليلى على البحث عميقاً في ذاكرتها وروحها عن إجاباتٍ لا تُدرس في الكتب.

"أستاذة، هل سيعود النهر نظيفاً كما كان يقول جدي؟" سأل أحمد، بينما كان يرسم زورقاً صغيراً على دفتره الممزق.

توقفت ليلى لحظة، تُجمع شتات أملها. "بالتأكيد يا أحمد. بالنظافة، والعلم، وحبكم لبغداد، سيعود كل شيء أجمل مما كان."

الكلمات تخرج منها كصلاة، كعزيمة. لكنها لم تكن متأكدة من أن أحمد سيُدرك يوماً دجلة نظيفاً، أو بغداد خالية من غبار الخراب. لم تكن متأكدة من أن أياً منهم سيُدرك.

* * *

استرجعت ليلى أيامها كطالبة صغيرة، في مدرسةٍ كانت يوماً صرحاً للعلم، جدرانها مرتفعة، ونوافذها مشرعة على حدائق غنّاء. تلك السنوات هي التي غرست فيها حب المعرفة والإيمان بأنها القوة الوحيدة القادرة على تغيير العالم.

منشورات «الفياء» AlYaa«

كانت تلميذةً ذكية، شغوفة بالكتب، تُبحر في عوالم الكلمات. تتذكر أستاذتها عائشة، المرأة الوقورة ذات الصوت الرخيم، التي تُعلّمهم أن العلم ليس مجرد سطور تُحفظ، بل هو نورٌ يُضاء به القلب والعقل. "يا ليلى، المعرفة هي جناحاكِ، تُحلقين بهما فوق كل الحواجز، وتقطعين بهما دروب الظلام." تقول الأستاذة عائشة. هذه الكلمات حُفرت في قلب ليلى كوصية أزلية.

تتذكر أيضاً حلمها بأن تصبح طبيبة، ثم محامية، ثم ربما مهندسة تُعيد بناء مدينتها. ولكن عندما اختارت مهنة التدريس، وجدت فيها شيئاً أعمق من أي من تلك المهن: وجدت فيها بذرة المستقبل. فالمعلم هو من يزرع أولى البذور في أرض الروح، هو من يُشعل الشرارة الأولى في عتمة الجهل.

في الجامعة، كان النقاش محتدماً حول دور المثقف في زمن التغيرات السياسية والاجتماعية. ليلى، الشابة النحيلة ذات العينين الثاقبتين، تؤمن بأن التعليم هو الثورة الحقيقية. "السلاح ليس الرصاص، بل القلم. الدمار ليس في المباني، بل في العقول." تقول بحماس، وتجد صدى لأفكارها في عيون أصدقائها، بمن فيهم سالم، الذي كان يؤمن بالكلمة كقوة لا تُقهر.

تلك الأيام بدت بعيدة، كحلمٍ جميلٍ تضاءل بمرور الزمن. هل كانت ساذجة؟ هل كان إيمانها مجرد وهْمٍ شابٍّ يائس؟ الأسئلة تعصف بداخلها، لكنها في كل مرة تنظر إلى عيون أطفالها، تجد الشرارة ذاتها التي تشتعل في قلبها، فتدفعها للمضي قدماً.

* * *

كان الأستاذ كريم يراقب ليلى من باب فصله المتهالك، يرى فيها

منشورات «الفيلاء» «AlYaa»

ذات الشغف الذي كان يحمله في بداياته. كان كريم أكبر سناً، خبرته في التعليم تفوق سنوات ليلى، وقد رأى الكثير. رأى جدران مدارس تتهاوى، وأحلام أطفال تتحطم، ونظم تعليمية تنهار تحت وطـأة الفساد والحرب.

انتهت الحصص، وتجمع المعلمون في غرفة المدرسين، التي هي في الأساس ممراً ضيقاً بين الأنقاض. جلس كريم مقابل ليلى، وقد ارتسمت على وجهه علامات التعب.

"هل ما زلتِ تؤمنين يا ليلى بأننا نصنع فرقاً؟" سأل كريم بصوت خفيض، وهو يحتسي كوب الشاي البارد.

نظرت ليلى إليه، عيناها مرهقتان. "أحاول يا أستاذ كريم. ماذا نفعل غير ذلك؟ هل نستسلم؟"

"ليس استسلاماً، بل هو واقعٌ مؤلم." قال كريم، وهو يُمرر يده على لحيته المشذبة. "نحن نزرع الأمل في أرضٍ تعلمين جيداً أن لا ماء فيها يكفي لسقي بذرة. كل يوم نرى أحدهم يغيب، إما عن الدراسة بسبب الفقر، أو عن الوجود كله بسبب السلاح."

ألمت كلماته ليلى، فالصدق فيها كان جارحاً. "ولكن يا أستاذ، إذا لم نزرع، فماذا سنحصد؟ مجتمعاً بلا فكر، بلا رحمة؟ أليس هذا أسوأ؟"

كان كريم يرى الحقيقة في عينيها، حقيقة كفاحها المستميت. "ربما. ربما نحن حراسٌ لما تبقّى من إنسانية في هذا المكان. حراسٌ لأحلامٍ صغيرة، علّها تكبر يوماً ما."

تبادل الاثنان نظراتٍ طويلة، نظراتٍ تتحدث عن سنواتٍ من

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

التعب، وعن أملٍ عنيدٍ يرفض الموت. كان كريم سنداً لليلى، صوتاً يُشاركها أوجاعها وتساؤلاتها، ويُذكرها أحياناً بأنها ليست وحدها في هذا الصراع الوجودي.

* * *

كان أحمد، ذلك الصبي ذو العشر سنوات، يمثل شمساً صغيرة في قلب ليلى. كان يمتلك روحاً مرحة، وعقلاً يتوق للمعرفة. في حصة الرسم، رسم أحمد نهر دجلة مليئاً بالأسماك الملونة، وعلى ضفافه بيوتاً خضراء، وابتساماتٍ صافية.

"هذه بغدادي التي سأبنيها عندما أكبر يا أستاذة!" قال أحمد بفخر، وهو يُريها رسمه.

ابتسمت ليلى، وقد سرى دفء في قلبها. "جميل يا أحمد، ولكن كيف ستبنيها؟"

"بالعلم، والمعرفة، مثلما تقولين دائماً! سأصبح مهندساً وأُعيد بناء كل شيء."

كانت هذه الكلمات وقودها. تجعلها تؤمن بأن كل التعب، كل التساؤلات، كل الخسائر، لم تذهب سدى. ترى فيه جيلاً جديداً، جيلاً قد يتمكن من تحقيق ما عجزت عنه أجيالها.

في ذلك اليوم، بعد انتهاء الدوام، ودّع أحمد أصدقاءه بضحكته المعهودة. تراقبه ليلى وهو يركض في الزقاق الضيق، حاملاً حقيبته المدرسية البالية، ويُلوح لها بيده الصغيرة. لم تكن تعلم أنها المرة الأخيرة التي ستراه فيها. لم تكن تعلم أن هذه الضحكة ستظل محفورة في ذاكرتها كشاهدٍ على البراءة المفقودة.

منشورات «الفياء» AlFyaa»

* * *

بعد ساعات قليلة، بينما تُصحح ليلى بعض الدفاتر في غرفة المدرسين، اهتزت الأرض من تحتها. صوتٌ مدوٍّ، ثم صرخات، ثم هرج ومرج. انقبض قلبها. هذه الأصوات أصبحت جزءاً من حياتهم اليومية، لكن في كل مرة تحمل معها رعباً متجدداً.

هرعت إلى الخارج، ورأت الغبار يتصاعد من أحد الأحياء المجاورة. كان الأطفال يركضون في كل اتجاه، يبحثون عن أهلهم، أو عن مكانٍ آمن. جاءها الأستاذ كريم، وقد بدا وجهه شاحباً.

"يا ليلى، هناك انفجارٌ في السوق الشعبي..." صوته كان يرتجف.

لم تنتظر ليلى. ركضت في اتجاه الصوت، قلبها يخفق بعنف، تردد في أذنيها ضحكة أحمد، وحلمه ببغداد جديدة. هناك أمطار من الغبار المتساقط، ورائحة الدم والبارود تملأ الهواء. وصلت إلى مكان الحادث، المشهد كان مروعاً. مبانٍ متهدمة، ودخان يتصاعد، وأجسادٌ متناثرة.

ثم رأت الأم. أم أحمد. تجلس على الأرض، تحتضن شيئاً. اقتربت ليلى بخطواتٍ ثقيلة، وكأن قدميها تُجذبهما الأرض. عندما رأت ما تحتضنه الأم، توقف الزمن. كان أحمد. الجسد الصغير مُضرّجٌ بالدماء، عيناه مفتوحتان، تحدّقان في لا شيء. ابتسامته اختفت، وحلمه لم يُعد له وجود.

انهارت ليلى على ركبتيها. لم تستطع الكلام، لم تستطع البكاء. فقط صمتٌ داخليٌّ رهيب، وكأن كل كلمة، كل أمل، كل بذرة غرستها، قد تبخرت في لحظة.

منشورات «الفيـاء» AlYaa»

* * *

جلست ليلى في زاوية الفصل، تنظر إلى المقعد الفارغ. مقعد أحمد. كان الصمت ثقيلاً بعد غيابه، أثقل من أي وقت مضى. تتذكر ضحكته، الآن، لم يعد هناك شيء.

تفهم ليلى الموت، فقد رأته من قبل. رأت جيراناً يختفون، وأطفالاً لا يعودون إلى المدرسة. لكن موت أحمد كان مختلفاً. أحمد كان يزرع الأمل، كان يتحدث عن المستقبل، عن بغداد التي سيبنيها. الآن، من سيبني بغداد؟

نظرت حولها، إلى بقية الأطفال. بعضهم كان يبكي بصمت، وبعضهم الآخر كان ينظر إلى لا شيء، وبعضهم كان يحاول أن يبدو قوياً، لكن عيونهم تخونهم. كان كل طفل يحمل قصة، قصة عن فقدٍ أو خوفٍ، أو عن أحلامٍ صغيرةٍ مهددةٍ بالزوال.

غابت ليلى عن الفصل في الأيام التالية. تفهم فاطمة أن أستاذتها أيضاً تبكي، ربما بصمتٍ أكبر. تساءلت فاطمة، هل ستعود الأستاذة ليلى لتُعلمهم عن الأمل؟ هل ما زال الأمل موجوداً في مكانٍ مثل هذا؟

* * *

كان الأستاذ كريم هو من تولى زمام الأمور في الأيام التالية لفقد أحمد. حاول أن يكون قوياً، أن يُطمئن الأطفال، لكن كلماته تخرج فارغة من المعنى. كيف يُطمئن أطفالاً فقدوا رفيقهم، وكيف يُطمئن نفسه؟

انقطعت ليلى عن المدرسة. لم تُجب على اتصالاته. كان يعرف

منشورات «ألف ياء» «AlIYaa»

أنها تمر بلحظاتٍ من الانكسار لا تحتمل. بعد أيام، ذهب كريم لزيارتها في منزلها المتواضع. وجدها جالسةً في الظلام، عيناها حمراوان من البكاء، لكنهما فارغتان من أي شعور.

"كيف لي أن أُعلمهم يا كريم؟" سألت ليلى بصوتٍ مبحوح، لم تستطع أن ترفع رأسها. "كيف لي أن أغرس فيهم الأمل في غدٍ أفضل، بينما الغد يُخطف منهم في وضح النهار؟ كيف لي أن أقول لهم إن المعرفة قوة، بينما أرى أحمد، أذكى طلابي، يرقد تحت التراب؟"

جلس كريم بصمت، لم يجد كلماتٍ تواسي. "أنا أفهمكِ يا ليلى. كل معلمٍ في هذا البلد يحمل هذا العبء. هذا الشك الوجودي."

"هل نحن كاذبون يا كريم؟" صوتها كان أشبه بالهمس. "هل نحن نبيعهم وهماً جميلاً، لنجعلهم ينسون واقعهم المرير للحظات؟"

نظر إليها كريم، ورأى الألم يُشوه ملامحها. "لا يا ليلى. أنتِ لستِ كاذبة. أنتِ من تمنحهم ما لا يملكونه في بيوتهم، ولا في شوارعهم. تمنحينهم مساحةً آمنة، مكاناً يكتشفون فيه أنهم أكثر من مجرد ضحايا."

"ولكن ما الفائدة يا كريم؟ ما الفائدة من بناء جيلٍ يعلم، إذا كان هذا الجيل سيُنهى قبل أن يُبنى؟"

"الفائدة يا ليلى، هي في الصراع ذاته. في الإصرار على أن تُضيئي شمعة، حتى لو كان الظلام حولكِ لا يُقاوم. أنتِ لا تُعلمينهم الكلمات والحساب فقط، أنتِ تُعلمينهم أن هناك عالماً آخر، عالماً يستحق أن يُقاتلوا من أجله. أنتِ تُعلمينهم أن الحياة ليست كلها موتاً وفناءً."

منشورات «الفياء» «AlYaa»

تُحاول كلمات كريم أن تُضيء شعلة صغيرة في روح ليلى المظلمة. لم تُجب ليلى، لكنها استمعت. هذه الأسئلة تُعذبها منذ فقد أحمد، وتُعيد إليها كل لحظة يأس شعرت بها في حياتها.

* * *

في الأيام التالية، تتجول ليلى في أزقة بغداد وشوارعها، ترى وجوه الأطفال التي تُشبه وجه أحمد، وتتخيل مصائرهم. كل طفل كان يحمل في عينيه سؤالاً، وسراً، وخوفاً. هل هي، كمعلمة، حارسة لمستقبلٍ لم يأتِ بعد، أم أنها مجرد زارعة للأوهام في أرضٍ يائسة؟

ما معنى الأمل الذي تُبذره في تربةٍ ملأتها الجثث والدموع؟ هل هو كفاحٌ نبيل، أم مجرد وهمٍ يُطيل أمد المعاناة؟

تذكرت أيامها كطالبة، كيف تؤمن بقوة المعرفة كأداة للتغيير. لكن هل المعرفة وحدها كافية؟ هل يستطيع القلم أن يُقاتل الرصاص؟ هل تستطيع الكلمات أن تُرمم الأجساد الممزقة، أو القلوب المنكسرة؟

تفكر في دور التعليم في مجتمعٍ مُحطم من جديد. هل هو مجرد ترفٍ في زمن البقاء؟ أم أنه هو الأساس الحقيقي للبقاء؟ إذا انعدم التعليم، فهل يتبقى للمجتمع أي أمل في النهوض؟

تتصارع الأفكار في رأسها كالعاصفة. ليلى المعلمة، التي تُردد دائماً أن "العلم نور"، أصبحت الآن تُتساءل عما إذا كان هذا النور قادراً على اختراق ظلامٍ بهذا العمق.

* * *

منشورات «الفيلياء» «AlfYaa»

مرت الأيام، وحلّ المساء. كانت ليلى تجلس في غرفتها المظلمة، حين سمعت صوت طرقٍ خفيفٍ على الباب. فتحت الباب، ورأت فاطمة، تحمل بيدها وردة جوري صغيرة، وباليد الأخرى دفتر رسم أحمد.

"أستاذة ليلى، هل ستعودين لتعليمنا؟" سألت فاطمة بصوتٍ خفيض، عيناها مليئتان بالترقب.

نظرت ليلى إلى فاطمة، ثم إلى الوردة، ثم إلى رسم أحمد لدجلة. رأت في عيني فاطمة، وفي تلك الوردة الصغيرة، وفي الرسم، شيئاً ما، شرارة أمل لم تكن تتوقع وجودها بعد الآن.

"ما هذا الدفتر يا فاطمة؟" سألت ليلى، وهي تُشير إلى الدفتر.

"إنه دفتر أحمد. تركه عندي في آخر يوم. أظنه كان يريدني أن أُريكِ هذا الرسم." قالت فاطمة، وهي تُشير إلى الصفحة التي رسم فيها أحمد بغداده المستقبلية.

مدّت ليلى يدها، وأخذت الدفتر. تلمست الرسم، وكأنها تلمس روح أحمد. كان هذا الرسم، هذا الحلم، هو ما أيقظها. لم يكن أحمد قد مات تماماً. حلمه، أمله، كان ما زال حياً في هذه الرسومات، وفي قلوب الأطفال الآخرين.

في تلك اللحظة، فهمت ليلى أن دورها لم يكن في منع الموت، بل في زراعة الحياة. لم يكن دورها في إزالة الظلام، بل في إشعال الشموع. حتى لو بدت الشمعة صغيرة، وحتى لو إن حياتها قصيرة، فإن نورها قد يُلهم شمعة أخرى، ثم أخرى.

"نعم يا فاطمة." قالت ليلى، وصوتها بدأ يستعيد بعضاً من قوته. "سأعود. سأعود وسنُكمل بناء بغداد أحمد معاً."

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

في صباح اليوم التالي، عادت ليلى إلى المدرسة. الجدران ما زالت متصدعة، والسقف ما زال متهالكاً، وغبار الخراب ما زال يملأ الأجواء. لكن في عينيها كان هناك شيء مختلف. إصرارٌ جديد.

استقبلها الأستاذ كريم بابتسامةٍ حذرة. "أهلاً بعودتكِ يا ليلى."

"لا بديل عن العودة يا كريم." ردّت ليلى. "لا بديل عن الاستمرار. ما نفعله هنا، ليس مجرد تعليم كلمات وحساب. ما نفعله هو غرس الإنسانية. هو بناء حصنٍ من الأمل. ربما لا نرى الثمار في حياتنا، لكننا نضع الأساس."

دخلت ليلى الفصل. استقبلها الأطفال بصمتٍ مهيب، لكن في عيونهم كان هناك ترقبٌ وأمل. أخذت مكانها خلف المكتب الخشبي، ونظرت إلى مقعد أحمد الفارغ للحظة. ثم رفعت رأسها، واستنشقت هواء الفصل المليء بالغبار، لكنه أيضاً مليء برائحة الطفولة والأحلام.

"صباح الخير يا أطفالي." قالت ليلى، بصوتٍ هادئ لكنه يحمل قوةً خفية. "اليوم، سنُكمل ما بدأه أحمد. سنُكمل بناء مدينتنا في عقولنا أولاً، ثم في واقعنا."

فتحت كتاباً، وبدأت تشرح. كلماتها تخرج كقطرات مطرٍ على أرضٍ عطشى، تُروي بذوراً لا تُرى، لكنها موجودة. ترى في عيون الأطفال، في كل سؤال، في كل ابتسامة، في كل نظرة خوفٍ، مستقبلاً يستحق القتال من أجله.

فقدت ليلى أحد بذورها، لكنها أدركت أن عملها ليس زرع شجرة واحدة، بل غرس غابة كاملة. حتى لو فُقدت بعض الأشجار، فإن الغابة ستستمر في النمو، ما دام هناك من يؤمن بقوة البذرة. دور المعلم، كحارس للمستقبل، هو دورٌ لا ينتهي. إنه كفاحٌ دائم، صراعٌ

منشورات «الفياء» «AlfYaa

بين النور والظلام، بين الأمل واليأس. ولكن في هذا الصراع ذاته، يكمن معنى الوجود، ومعنى الإنسانية، ومعنى أن تكون ليلى، المعلمة، في بغداد الممزقة. إنها تُعلم، لا لأنها متأكدة من أن الغد سيكون أفضل، بل لأنها تؤمن بأن الغد لن يكون موجوداً أبداً، إذا توقفوا عن حياكة خيوط الأمل في نسيج الحاضر.

وفي كل كلمة تُلقيها، وفي كل حلمٍ تُشاركه، تُعيد ليلى بناء ليس فقط المدرسة أو بغداد، بل تُعيد بناء نفسها، قطعةً قطعة، على أنقاض الفقد، وبشذرات الأمل الذي لا يموت. كان التعليم هو طريقتها في الصمود، وفي تحدي الموت ذاته.

برلين - بوخ - 2020

منشورات «ألف ياء» AlifYaa»

ندوب الغربة

منشورات «ألف ياء» «AlifYaa»

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

تعيش لندن طقسها المتقلب وغير المتوقع، وأحيانا موجة ضباب ا يلفّ الشوارع العتيقة وكأنها تُخفي سرّاً لا يُفصح عنه، وتعكس واجهاتها الزجاجيّة اللامعة سماءً رماديّة غالباً، أشبه بلوحةٍ زيتيّة لم تُكتمل تفاصيلها في عيني ليلى المغتربة. لم تتخذ المدينة لوناً أو روحاً في وعيها، ظلتّ محايدة، خالية من أيّ بصمةٍ عاطفيّة يمكن لروحها الشرقيّة أن تُعانقها. منذ ستة أعوامٍ ثقال، ألقت بها أقدار بغداد الممزقة في أحضان هذه العاصمة الصاخبة الهادئة في آن، حاملةً معها حقائب جلدية قديمة تهالكت من طول الرحلة، وثقلاً لا يُقاس من الذكريات التي تثقل خطوتها، وروحاً شرقية مُوشّمة بالحنين، أزرق كوشمٍ لا يمحوه الزمن ولا المسافات. لم يكن قدومها إلى هنا اختياراً محضاً، بل كان هروباً مُحملاً بالخوف من الموت الذي صار رفيقاً يومياً في وطنٍ كان يوماً مرادفاً للجمال والحياة، للشعر والنخيل، للألفة ودفء المجالس. هروباً وبحثاً عن الأمان الذي بات سلعة نادرة تُباع وتُشترى بالدم، وعن فرصةٍ لترميم ما تبقى من إنسانةٍ عاشت في جغرافيا الخسارة، في وطنٍ تُدمّر الحياة تفيها بسهولةٍ بالغة.

في صباحٍ شتويٍّ لندنيٍّ مُكفهرّ، كانت ليلى تجلسُ على كرسيّها الخشبيّ البسيط في شقتها الصغيرة الواقعة في شمال غرب لندن. شقةٌ تشبهها في وحدتها، مرتبةٌ بنظامٍ قاسٍ، لكنها تفتقر إلى الدفء العائليّ الذي تعرفه في بيوت بغداد العامرة بالحب والضجيج. لا ألوان زاهية تُسرّ النظر، لا أصوات أطفال تتراكض في ممراتها الضيقة، لا رائحة هيلٍ تفوح من الشاي الذي كان تُعدّه والدتها مع

منشورات «الفياء» «AlFyaa

إشراقة كل فجر.كوب من الشاي الأسود يبرد ببطءٍ بين يديها الدافئتين، بينما عيناها تحدّقان في المطر الخفيف الذي يضرب نافذة المطبخ بإيقاعٍ رتيبٍ وململّ. كان صوت المطر هنا يختلف جذرياً عن صوت المطر في بغداد؛ هناك كان إيقاعاً لرقصةٍ سماويةٍ تُحيي الأرض وتُفرح القلوب، غناءً للحياة وتجدداً للتراب. أما هنا، فقد بدا وكأنه بكاءٌ متواصل، رتيب، خالٍ من أي عاطفةٍ حقيقية، أشبه بآلةٍ تُصدر صوتاً لا معنى له. كان مجرد ماءٍ يسقط من السماء، لا يحمل معه رائحة التراب المُبلل، ولا عطر الياسمين الذي يتفتح بعد هطول الأمطار.

تناهت إليها أصداءُ نشرةِ أخبارٍ عربيةٍ من هاتفها الذكيّ، صوتٌ خافتٌ يأتي من عالمٍ بعيدٍ لا تزال مأساته تتجدد كل صباح. النشرة تتحدث عن انفجارٍ جديدٍ في بغداد، عن عشرات القتلى والجرحى، عن أحلامٍ أخرى تحولت إلى ركام. لم تعد تتأثر بالصدمة العنيفة التي تضربها في السنوات الأولى من قدومها، حين كانت كل كلمةٍ تُذكر عن وطنها أشبه بضربة خنجرٍ في قلبها. صار قلبها الآن أشبه بمدينةٍ حُصّنت أسوارها بالأسى، بُنيت جدرانها من الصبر المرّ، لكن الشوق كان قادراً على اختراقها في كل مرة، في كل نبضٍ حزين. شعرت بوخزٍ حادٍ في صدرها، كما لو أن جزءاً منها يتألم مع كل حجرٍ يتفتت في تلك المدينة البعيدة، كل روحٍ تُزهق على أرضها المقدسة. تتكسر كل قطعةٍ من بغداد، تكسر جزءاً صغيراً في مرآة هويتها التي تحاول جاهدةً أن تحافظ عليها سليمةً في هذا العالم الجديد، مُقاومةً لتيار النسيان والانصهار.

تنهدت ليلى، ومررت يدها النحيلة على وجهها، شعرت بملامحها التي تغيرت قليلاً بفعل الزمن والظروف. تلك التجاعيد الدقيقة التي رسمتها سنوات الغربة على جانبي عينيها، وذلك الشحوب الذي

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

استوطن بشرتها السمراء، كانا شاهديْن صامتين على رحلةٍ من الكفاح الخفيّ، من الصراع الداخليّ الذي لا ينتهي. هنا، في لندن، كانت ليلى مجرد رقمٍ في قائمة المهاجرين الطويلة، اسمٍ غريب النطق على ألسنة من حولها، يُلفظ أحياناً بتحريفٍ مؤلم. تُجاهد لتُجيد لكنة اللغة الإنجليزية، لتفهم الإشارات الاجتماعية الخفية التي تُحدد طبيعة العلاقات هنا، لتتقن فن التعامل مع نظامٍ مختلفٍ جذرياً عن كل ما عرفته في موطنها. فقدت جزءاً من تلقائيتها، من عفويتها البغدادية التي تجعلها تتوهج في مجالس الأهل والأصدقاء، تُلقي النكات وتُشارك في الأحاديث بحريةٍ لا تعرف القيود. هنا، عليها أن تكون حذرة، أن تزن كلماتها، أن تُراقب ردود أفعال الآخرين، أن تتأقلم مع صمتٍ اجتماعيٍّ لا تعرفه.

«بغداد... يا وجعي الأبديّ، يا قبلة روحي التائهة في دروب الغربة. هل تذكرينني؟ هل لا تزال دروبك تعرف وقع خطواتي الخفيفة؟ هل لا يزال دجلة الحبيب، بنبرته الرقيقة، يحمل همساتي على أمواجه نحو الجنوب، نحو البصرة، نحو الخليج؟» همست ليلى لنفسها، وعيناها تغوصان في بحرٍ من الاسترجاعات الفنية الحزينة، كل واحدةٍ منها قطرةُ دمعٍ من نهر الذكرى.

* * *

ظهيرة ربيع بغدادي، وشمس نيسان الذهبية ترش دفئها الساحر على شارع المتنبي العريق، وكأنها تُعطّر الهواء ببريقها. كان الهواء يضجّ بروائح الورق المعتق التي تُشبه رائحة التاريخ، والحبر الجديد الذي يُوحي بالتجدد، ممزوجةً بأريج الهيل الذي يفوح بشدةٍ من عربات الشاي الموجودة في بعض زوايا الشارع، يغمر المكان بدفءٍ خاص. ليلى الشابة، في أوج عشرينياتها، تتأمل كتباً قديمة

منشورات «الياء» «AlYaa»

مصفوفة بعنايةٍ على أرصفة الشارع، تداعب أطراف أصابعها عناوين دواوين الشعر القديمة والمعاصرة، تبحث عن كلماتٍ تُلامس روحها. ترتدي فستاناً صيفياً خفيفاً بلون الياسمين، يتراقص مع نسيم الهواء، وشعرها الأسود الداكن ينسدل كشلالٍ حول كتفيها الرقيقتين. ضحكةٌ صافيةٌ ارتسمت على شفتيها حين عثرت على نسخةٍ نادرة من كتابٍ لطالما بحثت عنه في كل مكتبات بغداد، روايةٌ صيادون لجبرا إبراهيم جبرا. صوت البائع ينادي بصوته الجهوريّ على بضاعته: "جديد وقديم، نادر وعميم، عندنا كل ما تريدون!"، وصوت عزف عودٍ خافتٍ يتسرب من إحدى الأماكن المكتظة، يُشجي الروح ويُداعب الأحاسيس. الحياة هناك نبض لا يتوقف، لوحةً حيةً من الفوضى الجميلة، من الأصالة التي تتجلى في كل تفصيل، في كل حجرٍ، في كل وجهٍ عابر. رائحة المطر بعد انقطاع طويل تحمل معها رائحة التراب المُبلل، رائحة تاريخٍ حافلٍ بالقصص والحكايات، تستقر في الذاكرة ولا تُفارقها. لم يكن الشارع مجرد مكان لبيع الكتب، بل كان روح بغداد تتجسد فيه بكل عظمتها وثرائها، ملتقىً للعقول المستنيرة والقلوب المتعطشة للمعرفة، حيث يتبادل الناس أطراف الحديث عن الشعر والسياسة والحياة اليومية، دون خوفٍ من عينٍ تراقب أو أذنٍ تتصيّد. تشعر بانتمائها العميق لكل ذرة تراب فيه، لكل كلمة منطوقة، لكل ابتسامة صادقة ارتسمت على وجهٍ بغداديٍّ أصيل. تلك الوجوه السمراء المُتعبة، لكنها المليئة بالدفء والألفة، هي التي صنعت هويتها، نسجت خيوط وجودها وكيانها. تذكرت ليلى كيف كانت تتبادل أطراف الحديث مع أحد بائعي الكتب العجائز، شيخٌ في الثمانينات من عمره، تجعدت يداه من حمل الكتب وتصفحها على مدى سنين طويلة، ولكنه كان يحمل في عينيه بريق الشباب وحكمة السنين، وكأنه موسوعةٌ متحركة. كان يحدثها عن الشاعر المتنبي، عن الممالك التي مرت من هنا، وعن

منشورات «الفيـاء» AlFYaa»

كيف أن بغداد لا تموت، بل تولد من جديد من رمادها كل مرة، كطائر الفينيق الأسطوري. "يا بنيتي، بغداد ليست مجرد مدينةٍ على الخارطة، بغداد فكرة. فكرة لا تموت أبداً ما دمنا نحملها في قلوبنا وعقولنا." قالها لها ذات مرة وهو يبتسم ابتسامةً عريضة، وقبل أن يهمس بها، كان قد أخذ نفساً عميقاً من زجاجة العطر التي يحتفظ بها في جيب سترته المُخيطة بعناية، عطر الياسمين الدمشقي الفوّاح، ليرش قطراتٍ منه على صفحات كتابٍ قديمٍ مفتوح، قائلاً: "حتى الكتب تحتاج إلى أن تتنفس الجمال، يا صغيرتي، حتى لا تُصبح مجرد أوراقٍ صامتة." تذكرت ليلى كيف كانت تشعر بأن روحها تتسع لتشمل كل هذا الجمال المحيط بها، كل هذه الحكمة المتوارثة، كل هذا العشق المنسكب على جدران الشارع، على وجوه الناس. كان هناك شعورٌ عميقٌ بالأمان يغمرها، ليس أماناً مادياً من الخطر، بل أمانٌ روحيٌ يشمل كل كيانها، فهي بين أهلها، وناسها، وتاريخها العريق. لم تكن تشعر بالغربة يوماً في هذا الشارع، كانت جزءاً لا يتجزأ من نسيجه الحيّ.

قطع صوت غلاية الشاي الكهربائية التي أوشكت على الغليان شرودها، أعادها إلى واقعها اللندنيّ البارد. هنا، لا شارع للمتنبي بالمعنى الروحيّ الذي تعرفه. هناك مكتبات ضخمة، منظمة، صامتة، لكنها تفتقر إلى روح الشارع، إلى الضجيج المحبب، إلى رائحة الهيل المتصاعدة مع بخار القهوة. شعرت بفراغٍ عميقٍ في روحها، كأنها فقدت جزءاً من حواسها التي تتغذى على زخم بغداد وحيويتها، كأنها أصبحت مجرد قشرةٍ لأنسأنه كانت يوماً مليئةً بالحياة.

تنامت حبكة فرعية صامتة في حياة ليلى، وهي محاولاتها المستمرة للاندماج في الثقافة الجديدة مع الحفاظ على جذورها

منشورات «الفيـاء» «AlfYaa

وهويتها العراقية. في بعض صباحات يوم الأحد، تذهب إلى ما يسميه البعض شارع العرب، لا لتشتري فقط ما تحتاجه من طعام، بل لتُصادف بائعاً عربياً، أو تسمع كلمةً واحدةً بلكنةٍ شرقيةٍ تُشبه لهجة أهلها. تبحث عن أي شيءٍ صغيرٍ يربطها بماضيها، بخيطٍ رفيعٍ يُبعدها عن الانفصال الكليّ.

حاولت، مرات، كثيرة أن تجد في شارع أدجوير رود تعويضا لما تركته في بغداد، لكنها تعود بشيء من الخيبة. بعد أن تُجمّع ما تحتاجه من حوانيت الشارع، تشعر أن روحها تستعجلها الخروج منه.

في شقتها، تحتفظ بصندوقٍ خشبيٍّ صغير، مُزخرفٍ بالفسيفساء اليدوية الجميلة، أشترته من ذلك الشارع، أصبح كأنه جزءٌ من روحها لا يُفارقها. كان بداخله بضع صورٍ قديمة لأهلها وأصدقائها، وسبحةٌ لوالدتها لا تزال تحتفظ برائحة يديها، ومفتاحٌ صدئٌ لباب بيتهم القديم الذي لا تعلم إن كان لا يزال قائماً على حاله أم تحول إلى ركام.

تحاول أن تُعلم نفسها الطبخ الإنجليزي، لتتأقلم مع الحياة هنا وتُشبع جوعها، لكنها تجد نفسها دائماً تعود إلى وصفات والدتها العراقية الأصيلة. الكبة، الدولمة، المقلوبة. رائحة البهارات الشرقية تُملأ مطبخها الصغير، وكأنها جسرٌ غير مرئيٍّ يصلها ببيتها البعيد، بقلب بغداد. تستمع إلى أغاني ناظم الغزالي وفيروز، بينما تفرك حبات البرغل للكبة، وتجد في كل لحنٍ حكايةً من حكايات بغداد القديمة، وفي كل كلمةٍ ذكرىً حيةً لا تموت.

في مكان عملها، وهو متجر لبيع التحف والكتب القديمة في حيٍّ راقٍ من أحياء لندن، تُجابه ليلى تحدياتٍ يوميةً ليست فقط في العمل،

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

بل في التواصل الإنسانيّ. زملاؤها اللندنيون كانوا مهذبين، مؤدبين، لكنهم كانوا أشبه بكتلٍ جليديةٍ يصعب اختراقها. الابتسامات باهتة، والمجاملات رسميةً تفتقر إلى الدفء. تشعر أحياناً بأنها شفافة، غير مرئية، وكأنها ظلٌّ يمشي بين البشر. تحاول أن تشاركهم حديثاً عن بغداد، عن تاريخها العريق، عن فنونها الجميلة، لكنها تقابل بنظراتٍ فاترة أو اهتمامٍ عابرٍ يتبعه تحويلٌ سريعٌ للموضوع. صور بغداد التي يحملونها في أذهانهم هي صور الدمار، الحرب، الإرهاب، المستوحاة من الأخبار اليومية. لم تكن صور شارع المتنبي، ولا دجلة، ولا حكايات ألف ليلة وليلة التي تُغذي الروح.

«يا ليلى، عليكِ أن تعيشي هنا كما لو كنتِ مولودةً هنا. أن تزرعي لنفسكِ جذوراً جديدةً في هذه الأرض، وإلا ستجفّين كزهرةٍ اقتلعت من ترابها الأصليّ.» كلمات صديقتها الإنجليزية الوحيدة، سارة، ترنّ في أذنيها. سارة إنسانة طيبة، ذات قلبٍ نقيّ، لكنها لم تفهم عمق الجذور، ووجع اقتلاعها من الأرض التي نمت فيها. لم تفهم أن القلب لا ينمو على الفور في أرضٍ جديدة، وأن الذاكرة ليست شيئاً يمكن التخلص منه بسهولةٍ أو التبرؤ منه.

* * *

كانت ليلى طفلةً لا تتجاوز السابعة من عمرها الغضّ، تلهو ببرائتها المعهودة مع أشقائها الصغار على ضفاف دجلة، تحت ظلال النخيل الباسقة التي تُلقي بظلالها الوارفة على مياه النهر،في نزهة عائلية. كان الجو صيفياً رائعاً، والشمس الذهبية تُلوّن مياه النهر ببريقٍ ساحر، وكأنها تُغني أغنيةً للجمال. ترتدي فستاناً أبيض ناصعاً، وشعرها مجدولٌ بضفائر صغيرة تُزيّن رأسها. تضحك بملء قلبها الصغير، قهقهاتٌ بريئةٌ تُعانق السماء الصافية، وتنتشر

منشورات «الفياء» AlFyaa»

في الهواء كأجمل الألحان. تمسك بيد أخيها الأكبر، بهاء، الذي كان يرمي الحصى الصغيرة في الماء، فيتراقص السطح الهادئ للنهر في دوائر متسعة، وكأنها تُخبر العالم بوجودهم. والدها، رجلٌ طويلٌ ومهيب، تُرسم تجاعيد السنين على وجهه حكايات حياته السابقة، كان يجلس على حشيش النهر يقرأ صحيفةً ويشرب الشاي المعتّق، بينما والدتها، سيدةٌ جميلةٌ بابتسامةٍ حنونةٍ لا تُفارق وجهها، تراقبهم من بعيدٍ وهي تتبادل أطراف الحديث مع جارتها الودودة. كان الهواء يحمل رائحة الطين المبلل، وندى الليل الذي بدأ يتسرب، وأصوات الباعة الجائلين الذين ينادون على بضاعتهم. هناك أغنيةٌ قديمةٌ تخرج من راديو في منزلٍ قريب، أغنيةٌ عن الحب والرضى واللوم الذي انتهى، تغنيها مائدة نزهت، تتسرب إلى الروح كخمرٍ عتيقٍ يُدغدغ المشاعر. شعرت ليلى الصغيرة يومها بأن العالم كله ملكٌ لها، وأن هذا النهر الأزليّ سيظل يتدفق إلى الأبد، حاملاً معه قصصهم، أحلامهم، حياتهم. كان النهر شهادةً على وجودهم، على استمرارية بغداد، على نبض الحياة فيها. تذكرت كيف كان والدها يروي لهم قصص السندباد البحريّ، وحكايات ألف ليلة وليلة، وكيف تتخيل نفسها بطلةً في تلك الحكايات، تتجول في أسواق بغداد القديمة، وتُقابل السلاطين والأمراء في قصورهم الفاخرة. بغداد يومها عالم من السحر والجمال، من الحكايات التي لا تنتهي، من الحب الذي يملأ القلوب. لم تكن مجرد مدينةٍ، بل كانت كائناً حياً يتنفس معهم، يُعانقهم بدفئه، ويُغني حياتهم بثرائه الثقافي والتاريخي. تشعر بأنها تنتمي إلى كل قطرة ماء في النهر، إلى كل نخلة باسقة، إلى كل حكايةٍ رويت في مجالسهم. هذا الشعور بالألفة والانتماء كان لا يُقدّر بثمن.

انقشعت الصورة فجأة، عادت ليلى إلى شقتها الباردة، حيث لا

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

دفء النخيل ولا حكايات الأهل. نهر التايمز هنا، كان هادئاً، بارداً، لا يحمل نفس الدفء أو الروح. إنه نهرٌ مهذب، لكنه لا يروي قصصاً، ولا يحمل همسات الطفولة على أمواجه. كان صمت هذا النهر يثقل قلبها، صمتٌ يختلف عن الصخب الحيوي لدجلة، عن تلك الأغاني التي تُعزف على ضفافه.

بعد ظهر ذلك اليوم، وبينما كانت ليلى تعود من عملها في المتجر، رأت رجلاً يجلس على مقعدٍ خشبيٍّ في الحديقة العامة القريبة من شقتها. كان يبدو شرقياً، ملامحه مُتعبة، وعيناه تحملان حزناً عميقاً، يشبه حزنها الذي بات رفيقها الدائم. كان يقرأ كتاباً باللغة العربية، عنوانه "المصابيح الزرق" لحنا مينا، وكأن حاله يُشبه عنوان الكتاب. ترددّت ليلى للحظة، بين أن تمرّ دون حديث، أو أن تُخاطبه. ثم دفعها فضولٌ غريبٌ، وشوقٌ لا يُقاوم للحديث بلغتها الأم، للبوح بكلماتٍ تُشبع روحها المتعطشة للألفة.

اقتربت منه بتردد، ابتسامةٌ خجولةٌ تُغازل شفتيها. "مساء الخير." قالت بصوتٍ خافتٍ، بالعربية الفصحى، وكأنها تُلقي بتحيةٍ من الماضي.

رفع الرجل رأسه، تفاجأ بوجودها، ارتسمت على وجهه الدهشة، ثم ابتسامةٌ باهتةٌ لم تُخفِ أثر الحزن. "مساء النور وأهلاً بكِ." ردّ، بلكنةٍ سوريةٍ واضحة، تُشبه إلى حدٍ كبير لهجتها العراقية.

"عفواً... رأيتك تقرأ كتاباً عربياً، فظننت أنك قد تكون... من وطننا الذي تركناه خلفنا." قالت ليلى، وهي تُشير بيدها إلى الكتاب المفتوح بين يديه، كأنها تُشير إلى جزءٍ من روحها.

"أجل، أنا فلسطيني، فلسطيني سوري. واسمي سامي. وأنتِ، هل

منشورات «الفـيـاء» «AlYaa»

أنتِ أيضاً من بلاد الشام؟" قال الرجل، وأغلق الكتاب بلطفٍ، واضعه جانباً على المقعد.

"أهلاً بك يا سيد سامي، أنا ليلى، من بغداد الحبيبة." قالت، وشعرت بحرارةٍ خفيفةٍ تسري في عروقها عند ذكر اسم مدينتها، وكأنها تُطلق سراح طائرٍ محبوسٍ في صدرها.

دعَاها سامي للجلوس بجانبه، فتجاوبت ليلى دون تردد، وجدت في عينيه نظرةً تفهمها دون كلام. كان الجو بارداً، ريحٌ خفيفةٌ تُداعب أوراق الشجر المتساقطة، لكن الدفء بدأ يسري في قلبيهما، ليس من الشمس الغائبة، بل من قربٍ غير متوقع، من ألفةٍ نادرة.

"لندن واسعة جداً يا ليلى، أليس كذلك؟ واسعة لدرجة أنها تُشعرك بالصغر والتفاهة. لكنها أحياناً تبدو ضيقةً جداً حين لا تجد فيها روحاً تفهمك، أو قلباً يُشاركك الوجع." قال سامي، ونظر إليها بتمعنٍ يُخفي وراءه ألف سؤالٍ وسؤال.

"أجل... تماماً كما لو أنك تتحدث لغةً يفهمونها كلمةً كلمة، لكنهم لا يفهمون قلبك الذي ينزف، ولا روحك التي تئنّ حنيناً." ردت ليلى، وشعرت بأنها وجدت شريكاً حقيقياً في هذا الإحساس الغريب والمؤلم الذي يُلازمها.

تبادلا أطراف الحديث مطولاً، دون مللٍ أو كلل. سامي كان مهندساً معمارياً من حلب، مدينة الجمال والعراقة، عاش حياته الأولى في مخيم النيرب، اضطر للفرار قبل ثلاث سنوات بعد أن دُمّر منزله ومكتبه الذي قضى فيه سنواتٍ يُبدع ويُخطط. تحدث عن حلب القديمة، عن أسواقها المسقوفة التي تُشبه المتاهات الساحرة، عن رائحة الياسمين التي تملأ شوارعها العتيقة، عن عظمة قلعتها التي شهدت آلاف السنين من التاريخ والحضارات، وكيف أن كل

منشورات «الفياء» «AlIYaa»

زاويةٍ فيها تُخبئ حكايةً. كل كلمة قالها سامي أعادت ليلى إلى بغدادها، إلى أزقتها، إلى دجلة، فكأن حكايات الشام وبغداد هي حكايات المدن الممزقة ذاتها، مختلفة في التفاصيل الصغيرة، لكنها متطابقة في ألم الفقد، في وجع الاقتلاع، في حسرة الماضي الذي لا يعود.

"أحياناً أستيقظ في منتصف الليل، أقسم لكِ، أشعر وكأنني لا أزال هناك، أسمع أصوات الرصاص التي لا تتوقف، أرى غبار الأنقاض يتصاعد إلى السماء ليُغيّر لونها الأزرق. ثم أفتح عينيّ لأجد نفسي في هذا السرير الوثير، في هذه الشقة الهادئة. أشعر بالذنب. هل يحق لي أن أكون في أمان بينما حلب تنزف وتُدمّر؟" قال سامي، وعيناه تُكفكفان دموعاً خفيةً تُظهر حجم الوجع.

* * *

تذكرت ليلى لحظة هروبها القاسي من بغداد، تلك اللحظة التي انطبعت في ذاكرتها كالوشم على الجلد. الأجواء خانقة، رائحة البارود والموت تملأ الهواء الثقيل، تُغلق الصدور. تحمل حقيبةً صغيرة، هي كل ما تبقى لها من ماضٍ سعيد، وروحاً مثقلة بالخوف، وكأنها تحمل الكون كله على كتفيها. صوت الرصاص كان قريباً دائماً، يُجعل قلبها يرتجف خوفاً. تتنقل بين الأزقة المهجورة، تتبع دليلها، كانت من الناس الفارين، وجوههم شاحبةٌ كالموتى، عيونهم زائغةٌ تُخبئ ألف قصة رعب، الدموع شحيحةٌ كأنها جفّت في مجاريها. في لحظةٍ ما، رأت أماً تُحاول أن تُغطي طفلها الرضيع بعباءتها الرقيقة من الغبار، صوت بكاء الطفل كان يختلط بأصوات الرصاص المتواصل، يُشكل سمفونيةً من الرعب. تمشي ليلى بسرعة، قلبها ينقبض ألماً، كل خطوةٍ تُبعدها عن وطنها

منشورات «الفيـاء» «AlFyaa»

أشبه بمسمارٍ يدقّ في نعش روحها المكلومة. لم تكن تنظر إلى الخلف، خوفاً من أن تُجبرها النظرة الأخيرة على التوقف، على الاستسلام لليأس، على العودة إلى الموت المحقق. كان عليها أن تنجو، أن تُقاوم هذا الموت الذي كان يلاحقها في كل زاوية، أن تصرخ في وجه الفناء. تذكرت كيف كان جسدها يرتجف بلا توقف، ليس من البرد القارس، بل من الخوف الذي تملكها، من الرعب الذي اخترق عظامها. رأت وسمعت ما يكفي عن الجثث المتناثرة على جوانب الطرق، والدماء التي تلطخ التراب، وشظايا الزجاج المتناثرة كنجومٍ سوداء تُضيء طريق الموت. في تلك اللحظة، لم تكن تفكر إلا في النجاة، في البقاء على قيد الحياة. لم يكن هناك مكانٌ للحنين، ولا للذكريات الجميلة، بل كان هناك فقط غريزة البقاء البدائية التي تُسيطر على الإنسان في أقصى الظروف. كان الموت يتربص في كل زاوية، والخيانة أقرب من الشريان، والأمان أصبح حلماً بعيد المنال. تحمل في داخلها شعوراً عميقاً بالخسارة، ليس فقط خسارة وطن، بل خسارة الذات التي تعرفها. تلك اللحظة التي شعرت فيها بأنها لم تعد تلك الفتاة البغدادية التي تتأمل الكتب في المتنبي، بل أصبحت لاجئة، مجرد عددٍ، جسدٍ يُحاول الهروب من فم الموت، كأنها أصبحت بلا هوية.

عادت ليلى إلى صوت سامي الذي كان يصف كيف أن جزءاً من روحه بقي في حلب، كيف يشعر وكأن هويته انقسمت بين ماضٍ مُدمّر وحاضرٍ غريبٍ لم يعتد عليه.

"وأنا أيضاً... أشعر بالذنب ذاته يا سيد سامي." قالت ليلى، "سامي فقط. سامي حاف" طلب سامي منها، فأكملت "أشعر بالذنب لأنني أصبحت أستطيع النوم بسلامٍ في سريرٍ دافئ، بينما أهلي في بغداد لا يعرفون طعم الأمان. أشعر وكأنني خنتهم، خنت بغداد

منشورات «الفياء» «AlYaa»

الحبيبة، تركتها وحدها لتواجه مصيرها."

"لا يا ليلى، نحن لم نخُنها. نحن نُحاول أن نحافظ على شعلة الذاكرة. أن نكون شهوداً على ما حدث، وأن نُحاول أن نعيش لنروي الحكاية، حكاية بغداد وحلب." قال سامي، وصوته يكتنفه حزنٌ نبيل، لكنه يحمل في طياته الكثير من الأمل. "هل تعرفين أن أمي وأبي يحملان مفتاح بيتهما الذي غادراه في فلسطين، وعشرات السنوات الكاملة من الذكريات، يتذكران رائحة تراب بلد الشيخ بعد المطر، هل تذكرين كيف كانت رائحة تراب بغداد بعد المطر؟ تلك الرائحة التي تُنعش الروح. كيف كانت ضحكات البشر والأطفال تملأ الأزقة والدروب وتُفرح القلوب؟"

تنهدّت ليلى، وقد غلبها الشوق الذي أخذ يتملكها. "أذكر كل تفصيلٍ صغيرٍ وكبير. أذكر وجه أمي وهي تبتسم لي، ابتسامةً تملأ قلبي بالدفء، وجه أبي وهو يروي لي الحكايات قبل النوم. أذكر صوت بائع التمر هندي في الصيف، ينادي على بضاعته بصوتٍ جهوري، وصوت الأذان الذي يرتفع من المآذن العالية ليُصافح السماء في كل أوقات الصلاة."

"وهل تعتقدين أننا سنعود يوماً ما إلى ديارنا؟ هل سنرى بغداد وحلب كما كانتا؟" سأل سامي، بنبرةٍ فيها مزيجٌ من الأمل الخافت واليأس المطبق.

صمتت ليلى طويلاً، تحدّق في أوراق الشجر الصفراء التي تتساقط من الأشجار حولهما، وكأنها أرواحٌ تُفارق أجسادها. "لا أعلم يا سامي. أحياناً أقول نعم، وأن الأمل لا يموت. وأحياناً أشعر وكأننا اقتلعنا من جذورنا إلى الأبد. وكأننا صرنا أوراقاً تائهةً تحملها الرياح في كل اتجاه، بلا وجهةٍ أو هدفٍ."

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

استمرت أحاديثهما لساعات طوال، تبادلا فيها قصص الفقد المشتركة، كل منهما يُخرج من جعبته حكايات الألم والحنين. سامي روى عن أخيه الذي اختفى في المعتقلات، وعن أمه التي لا تزال تنتظر عودته كل يوم، تُشعل شمعةً عند النافذة. ليلى روّت عن حريق غامض أتى على منزل جيرانها القدامى، وعن اختفاء صديقتها المقربة التي تعتبرها أختها. كل قصة تُروى تُشبه الأخرى في جوهرها، في الألم الذي تُخلفه، في السؤال الذي لا يُجيب عنه أحد: لماذا؟ لماذا كل هذا الدمار والخراب والفقدان؟

"هل هذا هو معنى الوطن يا سامي؟ أن تشعر به كجرحٍ عميقٍ في قلبك لا يلتئم أبداً؟" سألت ليلى، وصوتها مُتهدجٌ يكاد ينقطع، وقد شعرت بوجعٍ في حلقها.

"أظن ذلك. الوطن ليس فقط أرضاً أو بناءً ملموساً. إنه مجموع الذكريات العالقة في الروح، والروائح التي لا تُنسى، والأصوات التي تتردد في الأذن، والوجوه التي نحملها في داخلنا. إنه الهوية التي تُشكّلنا، التي تُعطينا معنىً لوجودنا. وحين يُهدم هذا كله، يبقى الوطن فينا كشبحٍ لا يُغادر، كظلٍّ يُرافقنا أينما ذهبنا." أجاب سامي، وهو يرمي ببصره نحو الأفق البعيد، كأنه يرى حلب أمامه.

مرت الأيام، وتكررت لقاءات ليلى وسامي في نفس الحديقة أو في مقهىً عربيٍّ قريب. أصبحا يشكلان دائرةً صغيرةً من الألفة في بحر الغربة الواسع، وكأنهما وجدا قطعةً من وطنيهما في عينيّ الآخر. كانا يتحدثان لساعات، أحياناً عن السياسة التي دمّرت أوطانهما، أحياناً عن الفن الذي يُحيي الأرواح، وأحياناً عن الطقس في بلادهم وكيف يختلف عن طقس لندن البارد. كل كلمةٍ تُقال بينهما أشبه بجذرٍ صغيرٍ يُحاول أن يجد لنفسه مكاناً في أرضٍ غريبة، ليخفف من ألم الاقتلاع، ومن وحشة الانفصال.

منشورات «AlYaa» «الياء»

تواصل ليلى حبكاتها الفرعية للاندماج، لكنها تُجاهد لتُوازن بين ذلك وبين الحفاظ على جذورها وهويتها الأصيلة. حضرت دروساً لتعلم الرسم بالزيت، لتجد متنفساً لمشاعرها المتضاربة، ولتُعبر عن حزنها وفقدانها. رسمت مناظر طبيعية للندن، جسر التايمز، الحدائق الخضراء، لكنها تجد نفسها دائماً تُضيف لمسةً شرقيةً لألوانها، تُضيف إليها دفء الشمس العراقية، أو تُضمّن في لوحاتها أشكالاً هندسيةً إسلاميةً مستوحاةً من مساجد بغداد القديمة، من زخارف بيوتها العتيقة. تُحاول أن تُخبر العالم الجديد عن بغداد التي تعرفها، لا بغداد التي يرونها في نشرات الأخبار المليئة بالدم والدمار. اشتركت في جمعيات ثقافية عربية في لندن، لتتعرف على أبناء جلدتها، لتتبادل معهم اللغة والذكريات، لتشعر بأنها جزءٌ من كلٍّ أكبر، وإن كان مُشّتتاً على أطراف العالم. تحضر الأمسيات الشعرية التي تُقام فيها، وتسمع قصائد عن الأندلس الضائعة، وعن الشام الحزينة، وعن بغداد الجريحة. كل قصيدة تُشعل فيها جمرة حنينٍ، وتُعيد إليها إحساساً عميقاً بالانتماء، وكأن أرواحاً أخرى تُشاركها ذات الوجع، ذات الأمل.

* * *

في ليالي الصيف البغدادية الطويلة، حيث النسيم يُداعب أشجار النخيل، تجلس ليلى في حديقة بيتهم القديم، حديقةٌ أشبه بقطعةٍ من الجنة على الأرض. تراقب النجوم التي تتلألأ في سماء صافية، وكأنها قطعٌ من الألماس المنثور على سجادةٍ مخملية سوداء. كان صوت الريح الهادئة يملأ الأجواء، يُخلق لحناً خفيفاً يُدغدغ مسامع الليل، يُضفي على المكان سحراً خاصاً. رائحة الشبوي تفوح من الأشجار المزروعة بعناية قرب السياج، والمرشوشة بالماء عند

منشورات «الفياء» «AlYaa»

الغروب، تملأ الرئتين بانتعاشٍ ساحرٍ لا يُنسى. والدتها تجلس بجانبها، تُمسد شعرها، وتروي لها حكاياتٍ من التراث الشعبي العراقي، عن الجن والملائكة، وعن الحُب الذي ينتصر على المستحيل، وعن الفرسان الشجعان. تتمدد ليلى على سجادةٍ منسوجةٍ يدوياً بألوانٍ زاهية، وتُحدق في القمر المكتمل، تتخيل نفسها أميرةً عربيةً في قصرٍ منيفٍ من قصور بغداد التاريخية. تتمنى لو يتوقف الزمن عند تلك اللحظة، لحظة الدفء، والأمان، والحكايات التي لا تنتهي. كان هناك شعورٌ بأن الحياة بسيطة، جميلة، مليئة بالحب غير المشروط الذي لا يطلب مقابلاً. لم تكن هناك هموم السياسة، ولا خوف من المستقبل المجهول، ولا شبح الحرب يُخيّم على الأجواء. كان الأب يتحدث مع أعمامها في المضافة الكبيرة، أصواتهم تتعالى في نقاشاتٍ حاميةٍ أحياناً، لكنها تنتهي دائماً بضحكاتٍ عاليةٍ تُشعل الفرح في القلوب. تُشكل تلك الليالي عمودها الفقري، تُعطيها القوة، وتغرس فيها الإيمان بأن الجمال باقٍ، وأن الحياة تستحق أن تُعاش رغم كل الصعاب. كل نجمة في السماء بغدادية، وكل همسة في الليل تحمل روح دجلة، وكل نسمة هواء تمرّ عبر أشجارها تُحدّثها عن الألفة والمحبة. كانت تلك اللحظة تجسيداً للفكرة الأصيلة عن الوطن: مكانٌ آمنٌ، مليءٌ بالحب، حيث تتشكّل الروح وتنمو دون خوفٍ أو قلق، حيث تتفتح البراعم وتُثمر. تلك الحديقة هي مملكة ليلى، وهي تُشكل جزءاً لا يتجزأ من هويتها.

عادت ليلى من ذكرياتها، لتجد نفسها في غرفة المعيشة، ضوء الشارع الخافت يتسلل من النافذة، يُلقي بظلالٍ باردة. شعرت ببردٍ قارسٍ في روحها، ليس برداً فيزيائياً من طقس لندن، بل برد العزلة، برد الانفصال عن ماضيها. فقدت صوت البلبل عند الصباح، ورائحة الشبوي الحقيقية التي تملأ رئتيها. هنا، كل شيءٍ مختلف.

«AlYaa منشورات «الفيلياء

هنا، لا أحد يروي لها الحكايات في الليالي الصيفية الهادئة، لا أحد يُشاركها دفء الذكريات.

تساؤلٌ فلسفيٌ كبيرٌ بات يُلازم ليلى في كل خطوةٍ تخطوها، في كل حلمٍ تُحلمه: ما معنى الوطن والهوية عندما تكون الجذور مقتعلةٌ من الأرض التي نمت فيها؟ هل الوطن هو الأرض التي وُلدت عليها، أم هو المكان الذي تجد فيه الأمان والراحة، حتى لو كان بعيداً عن أرض الأجداد؟ هل الهوية هي اللغة التي تتحدثها، أم هي الذكريات التي تحملها، أم هي الوجوه التي تُشبهك وتُشاركك ذات الملامح؟ ترى ليلى نفسها كشجرةٍ اقتلعت من ترابها الأصليّ بالقوة، وأعيد زراعتها في أرضٍ جديدة. حاولت الشجرة أن تُنمّي جذوراً جديدة، أن تُزهر، أن تثمر. لكنها تشعر دائماً بذاكرة التراب القديم الذي احتضنها أول مرة، بذاكرة الأم التي غرستها. تشعر بأنها تنتمي إلى ماضٍ أصبح وهماً، وإلى حاضرٍ لا يُشبهها تماماً. روحها تتأرجح بين ضفتين، ضفة بغداد الأبدية، المليئة بالذكريات، وضفة لندن العصرية، المليئة بالصمت.

العزلة الثقافية ثقيلةً على روحها، كحجرٍ صلدٍ يُقيّدها. على الرغم من أنها محاطة بالملايين في هذه المدينة الكبيرة، إلا أنها تشعر بالوحدة أكثر من أي وقتٍ مضى. لا أحد هنا يفهم عمق حزنها على بلدٍ لم يره إلا عبر شاشات التلفزيون، ولا أحد يُدرك حجم الحب الذي تحمله في قلبها لمدنٍ يعرفها فقط من نشرات الأخبار الكاذبة. تتردد كلمات أغنية عراقية قديمة في ذهنها، وكأنها تُعبر عن حالها: "حتى إسمي نسيتُه يا وطن، من كثر ما ناديتُك."

ألم الانفصال كان أشبه بظلٍّ أسود يُرافقها في كل مكان، يلتصق

منشورات «الفياء» AlFyaa

بها كجلدٍ ثانٍ. الانفصال عن أهلها، عن أصدقائها، عن جيرانها، عن أزقة بغداد القديمة، عن دجلة الخير. انفصالٌ عن جزءٍ كبيرٍ من كيانها، من روحها. كان الألم يتجلّى في كل مرةٍ ترى فيها عائلةً متآلفةً في حديقةٍ عامة، أو تسمع فيها ضحكاتٍ عاليةً تذكّرها بماضيها الجميل. كان ألم الحاضر يتبلور في كل وجبةٍ تأكلها وحدها في شقتها الصامتة، وفي كل مساءٍ تعود فيه إلى سريرها البارد. تحاول أن تملأ هذا الفراغ بالكتب، بالفن، بالعمل الشاق، لكن الفراغ كان عنيداً، يظل حاضراً كشاهدٍ صامتٍ على كل ما فقدته، على كل ما ضاع منها.

تتذكر كلمات والدتها الحبيبة، التي قالتها لها ذات مرة، وهي تُجهّز لها حقيبة سفرها يوم الرحيل المرير: "يا بنيتي، الوطن ليس حقيبةً تُحمل، ولا جواز سفرٍ تُغادر به الأوطان. الوطن هو ما يسكن روحك، ما يُشكّل قلبك، ما يُعطي لحياتك معنىً. أينما ذهبتِ، خذي بغداد معكِ، لا تتركيها خلفكِ لتضيع وتُنسى."

تلك الكلمات تُشكل عبئاً جميلاً على كاهلها، مسؤوليةً كبيرةً تُحاول أن تحملها. كيف تُحافظ على بغداد في قلبها، بينما بغداد نفسها تتشظى وتتلاشى وتُهدم؟ كيف تُحافظ على هويتها، بينما العالم يُحاول أن يُصهرها في بوتقةٍ جديدة، أن يجعلها نسخةً أخرى من البشر؟

* * *

كانت ليلةً من ليالي الأعياد في بغداد، حيث الفرح يملأ القلوب، وبعض الفوانيس والمصابيح الملونة تتدلى من شرفات، أو من نوافذ متفرقة تُلقي بظلالٍ زاهيةٍ على جدران بيوت حي الوزيرية. تتجول

منشورات «الفيـاء» AlIYaa«

ليلى، في أوج مراهقتها، مع صديقتها المقربة، زينب، في شوارع يعرفونها جيدا. أصوات الأغاني الشرقية كانت تُملأ الأجواء، تُداعب مسامع الليل، ورائحة البخور والحلويات تُدغدغ الحواس، تُشعل الشهية. تمسك زينب بيدها، تضحكان بملء قلبيهما، وتتبادلان أسرار الطفولة البريئة، وأحلام المراهقة الوردية. تتحدثان عن أحلامهما بالمستقبل، عن الدراسة في الجامعة، عن السفر إلى بلادٍ بعيدة، عن الحب الذي يتوقعانه. تُضيء النجوم السماء كأنها تبتسم لهما، تُشاركهم الفرح. ليلى ترتدي فستاناً أزرق جميلاً، وتشد ظفيرة شعرها بوشاحٍ حريريٍّ ناعمٍ يُضفي عليها سحراً خاصاً. شعرت يومها بأن الحياة هي احتفالٌ دائمٌ، وأن الأيام السعيدة لا تنتهي أبداً، وأن السعادة هي قدرها. كان هناك شعورٌ بالانسجام التام مع الكون، مع الناس المحيطين بها، مع المدينة التي تحتضنها. ترى وجوهاً مُبتسمةً من كل حدبٍ وصوب، أطفالاً يتراكضون في الأزقة، نساءً يتبادلن التهاني والضحكات، رجالاً يحتسون الشاي في المقاهي الشعبية، يتسامرون ويتبادلون الأخبار. كل لحظةٍ تُسجل في ذاكرتها كلوحةٍ فنيةٍ مُشرقة، تُعطيها دفئاً في ليالي الغربة الباردة. تلك اللحظة، وهي تسير تحت ضوء الفوانيس المتلألئة، تتمنى لو أنها تستطيع تجميد الزمن، لتبقى إلى الأبد في تلك اللحظة الساحرة، لحظة الفرح والأمان. كانت بغداد يومها، كحاضنةٍ كبيرةٍ للحب، والفرح، والأمان، تُعطي دون أن تأخذ. كانت ليلى جزءاً لا يتجزأ من نسيج هذه المدينة، جزءاً من قصتها التي لا تنتهي.

انتهى الاسترجاع، وبقيت ليلى تُحدق في النافذة، وقد غابت الفوانيس، وضحكات زينب تلاشت مع الريح البعيدة. لم يبقَ إلا صدى الحنين الذي يُشعل شمعةً خافتةً في زوايا روحها المعتمة. كان هذا الصدى هو الحبل السري الذي يربطها بماضيها، ببغداد التي

منشورات «الفيـاء» AlFyaa«

كانت، ببغداد التي سكنت روحها.

في لندن، تتبع ليلى ببطءٍ أساليب الحياة الحديثة، لتندمج في المجتمع الجديد، كأنها تتعلم لغةً جديدةً للوجود. تعلمت أن تُجري المحادثات القصيرة السطحية، أن تُشارك في الفعاليات الاجتماعية بحدودٍ معينة، أن تُعبر عن رأيها بوضوحٍ وصراحةٍ أكبر مما تفعل في بغداد بنبرة باردة تفتقد للحماس، حيث كان للكلمة أحياناً ألف معنى ومعنى، وحيث الصمت كان أبلغ أحياناً. تعمل جاهدةً على تحسين لهجتها الإنجليزية، لتخفي آثار هويتها اللغوية، خوفاً من النظرات الفضولية أو الأحكام المسبقة التي تُطلق على المهاجرين. تُحاول أن تُصبح "اللندنية" في شكلها، في أسلوب حياتها، في تعاملها مع الآخرين، لكن روحها تظل "بغدادية" حتى النخاع، مُتشبثةً بأصولها.

تحتفظ ببعض العادات والتقاليد العراقية في منزلها، كأنها تُقيم طقوساً مقدسة. تُشعل البخور ليلة الجمعة، وتُقرأ القرآن بصوتٍ خافتٍ يُهدئ روحها. تُحاول أن تُحضر الأطباق العراقية لأصدقائها الإنجليز، لتُعرفهم على جانبٍ آخر من ثقافتها، بعيداً عن صور الحرب والدمار التي تُظهرها وسائل الإعلام. تجد بعض السعادة في رؤية إعجابهم بطعامها، وفي تذوقهم للبهارات الشرقية الغريبة على ألسنتهم. هذه اللحظات الصغيرة هي انتصاراتها الشخصية، انتصاراتٌ تُثبت لنفسها ولهم، أن بغداد ليست مجرد ماضٍ مُلّونٍ بالدماء، بل هي ثقافةٌ حيةٌ، غنيةٌ، تستحق أن تُشارك وتُعرف.

في إحدى ليالي الشتاء الباردة، بينما ليلى وسامي يتناولان القهوة في مقهىً عربيٍّ صغيرٍ في لندن، تحدثا مطولاً عن صعوبة بناء حياةٍ جديدةٍ في أرضٍ غريبة، عن التناقضات التي تُصاحبها.

منشورات «الفياء» «AlfYaa»

"أحياناً أشعر وكأنني أُمثّل دوراً في مسرحيةٍ كبيرة يا ليلى." قال سامي، وعيناه تُحدقان في فنجان القهوة. "أرتدي قناعاً كل صباح لأُصبح الرجل الذي يجب أن أكونه هنا. الرجل العمليّ، المُنظم، الذي يُجيد كل شيء. الرجل الذي لا يحمل أي ماضٍ مؤلم. لكن في داخلي، أنا سامي الحلبيّ، الذي كان يرتشف القهوة على صوت فيروز في حلب القديمة، ويسير في شوارعها العتيقة مع رفاقه، ويحلم بمستقبلٍ أفضل لوطنه."

"وأنا أيضاً يا سامي." قالت ليلى، وقد شعرت بصدق كلماته، وكأنها تُعبر عن حالها. "أُمثّل دور المرأة المستقلة، القوية، التي تجاوزت كل شيء، التي لا يهزها شيء. لكن في داخلي، أنا ليلى البغدادية، التي تخاف من الظلام، وتنتظر حكايات والدها لتنام، وتنتظر دفء أمها ليُغطيها من برودة الحياة. أخشى أن أنسى من أنا، يا سامي. أخشى أن تُصبح بغداد مجرد ذكرى باهتةٍ في ذهني، كأنها لم تكن يوماً حقيقةً."

"لن تُصبح." قال سامي، وقد وضع يده على يدها، في لمسةٍ تحمل الكثير من العطف والتفهم، وكأنه يُقسم لها. "لن ننسى. لأننا نحن حاملو هذه الذاكرة العريقة. نحن من سَيروي هذه الحكايات لأطفالنا وأحفادنا، من سينقل إليهم تفاصيل الماضي. نحن من سيُبقي بغداد وحلب حيتين في القلوب والعقول، حتى لو كانتا مُدمّرتين على الخرائط الجغرافية."

تلك الكلمات تبدّت بلسماً لروح ليلى الجريحة. شعرت بأنها ليست وحدها في هذه الرحلة المجهولة، في هذا الطريق الوعر. كان هناك من يفهمها، من يُشاركها ذات الهم، ذات الألم، ذات الحنين الذي لا ينتهي. كان هذا اللقاء مع سامي بمثابة ترياقٍ خفيٍّ لوحدتها، لجزءٍ من ألم انفصالها. كانت رؤيته، والاستماع إلى قصصه، بمثابة دليلٍ

منشورات «الفـياء» «AlfYaa»

آخر على أن الهوية ليست شيئاً يُفقد بسهولة، بل هي روحٌ تُطاردك أينما ذهبت، تهمس لك بحكاياتٍ من الماضي، وتُشير لك إلى طريقٍ ما، إلى وطنٍ لا يزال حياً في الذاكرة، نابضاً في شرايين القلب.

في ليالي الشتاء الطويلة، تجلسُ ليلى أمام نافذتها، تُحدق في أنوار لندن المتلألئة التي تُشبه النجوم على الأرض. مدينةٌ جميلة، صاخبة، مليئة بالحياة، لكنها ليست بغداد. لم تستطع أن تُحبّها بالقدر نفسه، أن تُعطيها ذات المكانة في قلبها. لندن أشبه بضيفٍ أُجبرت على استضافته، تُحسن إليه، تُقدم له كل ما تملك، لكن قلبها يظل يُحنّ إلى أهل بيتها، إلى دفء أصدقائها.

تزداد تساؤلاتها الفلسفية عمقاً مع مرور الوقت، تُثير في داخلها عاصفةً من الأفكار. هل الوطن هو حيث الأمن؟ أم حيث الذكريات الجميلة؟ هل يمكن أن يكون للإنسان أكثر من وطنٍ واحدٍ في قلبه؟ هل يمكن أن تُزرع الروح في أكثر من مكانٍ واحدٍ وتُزهر؟ تؤمن أن الوطن هو جزءٌ لا يتجزأ من الروح، وليس مجرد مكاناً يمكن تغييره بسهولة. إنه الوشم الذي يطبع على جلد الإنسان، لا يمحوه الزمن ولا المسافات الطويلة. وشمٌ أزرق، بلون دجلة في يومٍ صافٍ، يحمل في طياته خريطةً لأزقة بغداد، ولمسة يد أمها الحنونة، وصوت ضحكات أبيها العالية.

تدرك ليلى أن رحلتها في الغربة لم تنتهِ بعد. أنها ستستمر في البحث عن مكانٍ لها، عن هويةٍ مُركّبةٍ تجمع بين ماضيها وحاضرها، بين بغداد ولندن. ستستمر في الصراع الصامت للحفاظ على جذورها، على لغتها، على ذكرياتها. ستكون ليلى المغتربة، الشاهدة على جرح وطنٍ، وحاملةً لشعلة الذاكرة، وناحتةً لهويةٍ جديدةٍ من رماد الماضي، مُحاولةً أن تُضيء فكرةً، وتُغيّر نظرةً، وتُخلّد لحظةً في هذا العالم الذي يُسرع نحو النسيان. ستظل تُحدق

منشورات «ألفياء» AlfYaa«

في السماء، تبحث عن نجمةٍ تُشبه نجمة بغداد، تتمنى أن تحملها الريح إلى وطنها، ولو في الحلم، ولو لليلةٍ واحدة.

برلين - بوخ - 2019.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

منشورات «الف ياء AlfYaa»

دروب أخرى

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

في قلب بغداد، حيث تتآكل جدران الزمن بفعل الذكريات وتُلطخ الطرقات بغبار الأمس، نهضت ليلى، ليس كشخصية واحدة، بل كصدى لآلاف الليلات اللواتي مررن في هذه المدينة. كانت تجلياً حياً لروح بغداد الصامدة التي لا تقهر، وقد جمعت شتات نفسها من بين ركام حكايات سابقة من الفقد والمعاناة، لترسم طريقاً جديداً نحو الشفاء وإعادة البناء. ليلى هذه تجسيد لكل ليلى عاشت، عانت، وفقدت، لكنها رفضت أن تنكسر. في عينيها، يقرأ المرء تاريخاً طويلاً من الألم، ولكنه يرى أيضاً نوراً ثابتاً، كشعلة زيت لا تنطفئ حتى في أقسى الرياح.

في ركنٍ قديمٍ من أركان المدينة، حيث البيوت تتآكل وأزقة الزمن تتشابك، وقفت ليلى أمام مبنى قديم، شهدت جدرانه قد على عذاباتٍ لا تُحصى، لكنها الآن تتنفس حياةً جديدة. "دار الأمل"، هكذا تسمّى. لم يكن المبنى فخماً، بل كان متواضعاً، لكنه كان ينبض بالضوء، بضوء الأمل الذي لا تشتريه الأموال، بل يُصنع من عزم القلوب. في الداخل، تمتزج الأصوات: همهماتٌ خافتة لنساء يتعلمن فن التطريز على أقمشة تحمل نقوشاً عراقية عريقة، ضحكاتٌ خجولة لأطفال يرسمون بألوانٍ زاهية على جدران خالية، وصوتُ آلة خياطة يدويّة قديمة تُحدث إيقاعاً ثابتاً، كنبض حياةٍ مستمرة.

تتجول ليلى بين الغرف، ابتسامةٌ هادئة على شفتيها، وعيناها ترصدان كل تفصيل. لم تكن مجرد مشرفة، بل كانت صانعة للمعنى، ترعى كل بذرة أمل تزرعها في أرواح هؤلاء الناس. تتوقف بجانب امرأة عجوز، يرتجف يداها وهما تحيكان غرزةً

منشورات «ألف ياء» «AlifYaa»

معقدة، فتمسك بيديها برفق، وتعدل لها القماش. "جميل يا خالة، صبرك سرّ جمال عملك." كلماتها البلسم الشافي، تحمل معها وزن التجربة، وعمق الفهم.

في قرارة نفسها، كان صوت الماضي لا يزال يهمس أحياناً، يجلب معه أصداء ضحكة طفلٍ فُقد في لهيب حريق، أو لمسة زوجٍ اختفى بلا أثر، أو رائحة دخان حريق لم يغادر ذاكرتها قط. تلك اللحظات تضرب بعمق في أعماق روحها، لكنها لم تعد تجرّها إلى الهاوية. تعلمت ليلى أن تتصالح مع تلك الأصوات، أن تمنحها مكاناً في متحف ذاكرتها، لكنها لا تتركها تسيطر على حاضرها. تذكرت اللحظة التي شعرت فيها بأنها على وشك الانهيار التام، حينما ترفض الروح أن تحمل المزيد، وكيف أنها تمسكت بشعرة أمل واهية، شرارة بسيطة من التحدي، رفضاً للموت قبل أن تحيا. "لم يمت من ناضل، بل مات من نسي القضية."تهمس لنفسها. تلك الشرارة أصبحت الآن لهيباً يضيء دروب الكثيرين.

لم تكن "دار الأمل" مجرد مبنى، بل كانت تجسيداً لرحلة ليلى نفسها. لم تُبنى في يوم وليلة، بل ثمرة سنوات من الكفاح الداخلي والخارجي. بعد كل ما مرت به، وجدت نفسها في فراغٍ هائل، فراغٍ ملأه صدى الفقد. لسنوات، ظلت تتخبط في متاهة الأسى، تبحث عن نقطة ارتكاز، عن معنى لبقائها حينما فقدت كل شيء. كان الوجود نفسه عبئاً لا يُطاق. ثم جاءت اللحظة الفارقة، لحظة إدراكٍ مؤلمة وواضحة في آن واحد: أن نجاتها لم تكن لنفسها فقط، بل رسالة، شهادة. رأت الألم في عيون الآخرين، عيوناً تاهت في الفراغ مثلها، أدركت أن جرحها ليس فردياً، بل جماعياً، يخصّ بغداد بأسرها.

البداية صعبة، مليئة بالشكوك والمقاومة. لا تملك شيئاً، سوى إرادتها المستنفذة. قابلت أولاً الدكتورة سارة، طبيبة نفسية تعرفها من

منشورات «الفيـاء» «AlfYaa»

المستشفى الذي زارته ذات مرة. سارة امرأة مثقفة، عيونها تحمل حزناً عميقاً لكنها تنبض بإصرار لا يلين. التقتا في أحد اجتماعات الإغاثة الصغيرة، حيث سارة تتحدث عن أهمية الدعم النفسي لضحايا النزاع. رأت سارة في عيني ليلى بريقاً خاصاً، فهمت أن هذه المرأة تحمل في روحها قدرة استثنائية على الصمود. اقتربت منها بعد الاجتماع، وتبادلا القصص، فوجدتا أرضية مشتركة من الألم والأمل. "أنتِ لستِ وحدكِ يا ليلى، وهذا البلد مليء بمن يشبهونك." قالت سارة بصدق. كلماتها كالماء البارد على لهيب قلب ليلى.

لاحقاً، انضمت إليهما المحامية الشابة نور. نور أصبحت الآن أكثر نضجاً وخبرة، لكنها لم تفقد شغفها بالعدالة. سمعت عن مبادرة ليلى وسارة، وعرضت خدماتها القانونية. ساعدت نور في تأمين المبنى المهجور، وفي تجاوز عقبات البيروقراطية الخانقة، وفي تحويل الحلم إلى واقع ملموس. تؤمن نور بأن القانون، رغم كل نقائصه في هذا البلد، يمكن أن يكون أداةً لبناء العدل، حتى لو كان بناءً صغيراً. "العدالة ليست رفاهية، يا ليلى، إنها أساس البقاء." قالت نور ذات يوم، وهي ترتب أكوام الأوراق القانونية على مكتبها المتهالك.

رويداً رويداً، بدأت "دار الأمل" تتشكل. لم تكن مجرد مشروع، بل قصة حياة تتجدد. تبرعات صغيرة من أفراد آمنوا بالفكرة، متطوعون جاؤوا بقلوبٍ مفعمة بالرغبة في المساعدة. كل غرزة في قماش مطرز، كل ضربة فرشاة على لوحة، كل كلمة طيبة تتبادلها النساء، هي لبنة في بناء جدار الأمل. كان المكان يشبه روح ليلى نفسها: متواضعاً لكنه عميق، يحمل آثار الماضي لكنه ينظر نحو المستقبل. رائحة الشاي العراقي تمتزج برائحة الأخشاب القديمة

منشورات «الفياء» «AlfYaa»

والتراب الرطب، لتشكل عبقاً خاصاً بالمكان، عبقاً يُخبرك أن هذا المكان هو موطن للذاكرة وللغد في آن واحد.

لم تكن ليلى مجرد مؤسسة، بل كانت قلباً نابضاً للمركز، محركاً دائماً للطاقة الإيجابية، قوة دافعة لا تكل ولا تمل. في أحد الأيام، جاءت امرأة اسمها أم فهد، عيناها خاويتان كمن فقد كل شيء. أرملة وأم لثلاثة أطفال، زوجها فُقد في انفجار غامض، ومنزلها دُمر بالكامل. دخلت أم فهد إلى دار الأمل بصمتٍ مطبق، لم تنطق بكلمة واحدة لأسابيع. تجلس في زاوية الغرفة، تراقب الآخرين بصمت، كظلٍّ باهت.

اقتربت منها ليلى مرات عديدة، تتحدث معها بكلماتٍ قليلة، تعرض عليها استكان شاي، تدعوها للمشاركة في حياكة أو رسم. ترفض أم فهد بلطف، أو لا ترد أحياناً. لم تيأس ليلى. تدرك أن الألم الصامت أشد قسوة، وأن الثقة لا تُبنى إلا بالصبر. "الجرح الغائر لا يُشفى بمسحة واحدة يا سارة، إنه يحتاج إلى وقت وصبر، وقبل كل شيء، إلى شعور بالأمان." تقول ليلى للدكتورة سارة.

بدأت سارة جلساتها العلاجية مع أم فهد، تتحدثان عن الفقد، عن الغضب، عن الخوف. تعرف سارة كيف تُخرج الكلمات من الأعماق، كيف تُحلل الصمت. في نفس الوقت، تتولى نور قضية أم فهد القانونية، تحاول مساعدتها في استعادة أوراق زوجها المفقودة، أو الحصول على تعويض لبيتهم المدمر. العملية بطيئة ومعقدة، بيروقراطية الدولة كالمتاهة، لكن نور لم تيأس. "كل ورقة نُنجزها هي خطوة نحو استعادة جزء من كرامتهم، يا ليلى." تقول نور بحدّة.

شيئاً فشيئاً، بدأت أم فهد تتغير. بدأت ترتاد دروس الحياكة، تتحدث كلمة هنا وكلمة هناك. في أحد الأيام، رسمت لوحة زيتية،

منشورات «ألفياء» «AlfYaa»

ألوانها رمادية وداكنة في البداية، ثم بدأت تتداخل فيها بعض الألوان الدافئة، البرتقالي والأصفر. تُظهر اللوحة بيوتاً مهدمة، لكن من بين الركام، هناك زهرةٌ صغيرة تُزهِر. رأت ليلى اللوحة، فابتسمت ابتسامةً عريضة. "هذا هو الأمل يا أم فهد، إنه ينمو حتى في الخراب." قالت ليلى. لأول مرة، ردت أم فهد بابتسامة خجولة، وقالت: "لم أكن أصدق أنني سأتمكن من الرسم مرة أخرى." كان ذلك تحولاً صغيراً، لكنه كان يعني العالم لليلى ولسارة ولنور. كل بصمة من الألم تتحول إلى خيط ينسج نسيج الأمل.

لم يكن عملهم مقتصراً على الكبار. تولي ليلى اهتماماً خاصاً للأطفال، أولئك الذين رأوا من الفظائع ما لا يراه الكبار في حياتهم. كان هناك طفل صغير اسمه أحمد، أتى إلى الدار بعد أن فقد والده في تفجير، وأصبح منغلقاً على نفسه، لا يتكلم ولا يلعب. عيناه تحملان حزناً لم تكن لهما. خصصت ليلى له ركناً خاصاً بالرسم الحر. تضع أمامه الألوان وتتركه وشأنه. في البداية، كان يرمي الألوان على الورق بعشوائية، أو يرسم أشكالاً سوداء. لم تتدخل ليلى، بل تراقبه بصمت، تعرف أن التعبير عن الألم يأخذ أشكالاً متعددة.

ذات يوم، بينما كانت ليلى تراقب أحمد، رأته يرسم بيته المدمر، بألوان داكنة. ثم، كأنما قوة خفية قد دفعته، بدأ يرسم فوق الألوان الداكنة أشكالاً بيضاء، ثم زرقاء، ثم خضراء. لم تكن أشكالاً واضحة، لكنها تتجمع لتُشكل سماءً وغيوماً وأشجاراً. كانت تلك لحظة فارقة. اقتربت منه ليلى، فسألها أحمد بصوت خافت لم تسمعه منه من قبل: "هل ستعود الأشجار يا خالة؟" ابتسمت ليلى، ومسحت على رأسه بلطف. "نعم يا أحمد، ستعود أجمل وأقوى، وستكون أنت من يزرعها." هذه الكلمات، تلك الشرارة من الأمل، هي ما يحرك

منشورات «الفيـاء» «AlFyaa»

ليلى كل يوم. ترى في عيني أحمد لمحة لمستقبل أكثر إشراقاً، لمستقبل يستحقه هؤلاء الأطفال.

مع كل قصة نجاح صغيرة، تشعر ليلى بامتلاء الروح. لكن الطريق لم يكن مفروشاً بالورود. كان هناك دائماً نقص في التمويل، بيروقراطية لا نهاية لها، وتحديات لا تتوقف. في بعض الأيام، تتسرب إليها لحظات من الإرهاق الشديد، شعور بأن كل هذا الجهد لن يغير شيئاً في بحر المآسي الواسع. تستذكر الليالي الطويلة التي قضتها بلا نوم، تبحث عن حلول، تطلب المساعدة، تواجه الرفض. تستذكر ليالي أخرى، تتساقط فيها دموعها بصمت على وسادتها، تحن إلى حياةٍ بسيطة، حياة لم تكن تعرف فيها الفقد بهذا الشكل العنيف. لكنها تنهض في الصباح التالي، وكأن قوة خفية تدفعها، تستمد قوتها من أولئك الذين ينتظرون بصيص أمل. كان إيمانها بأن كل روح يتم إنقاذها، كل قلب يتم ترميمه، هو انتصار بحد ذاته.

كان الغفران هو أحد أكثر الموضوعات تعقيداً في رحلة ليلى. لم يكن الأمر يتعلق بغفران من سبب الأذى، بل بغفران الذات أولاً، وغفران الظروف. تساءلت في لياليها الطويلة: كيف يمكن للمرء أن يغفر لنفسه ما لم يكن بيده منعه؟ كيف يمكن للمرء أن يسامح القدر على قسوته؟ في جلساتها مع الدكتورة سارة، تُطرح تلك الأسئلة مراراً. "الغفران ليس نسياناً يا ليلى، وليس تبريراً للمعتدي." قالت سارة بوضوح، "إنه تحرير للروح من قيود الكراهية والغضب. أنتِ تستحقين أن تحرري نفسكِ من هذا العبء."

الغفران ليس سهلاً، بل كان عمليةً طويلة ومؤلمة. تعلمت ليلى أن الغفران يبدأ من الداخل، بالاعتراف بالألم، ثم قبوله، ثم تجاوز الرغبة في الانتقام التي تستنزف الروح. لم تُنسَ الليالي المظلمة، ولا الوجوه التي فقدتها. لكنها اختارت ألا تصبح رهينة للماضي.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

اختارت أن تتنفس. بدأت تؤمن بأن العدالة الحقيقية قد لا تتحقق أبداً في هذه الحياة، لكن السلام الداخلي هو شكل من أشكال العدالة التي يمكن للمرء أن يمنحها لنفسه.

الأمل، بالنسبة لليلى، ليس وهماً وردياً. لم تكن تعتقد أن بغداد ستتحول إلى جنة بين عشية وضحاها. الأمل لديها فعل واعٍ من أفعال التحدي، رفضاً مستمراً للانكسار. الأمل يكمن في صوت طفل يضحك، في نبتة خضراء تخترق خراب الأرض، في يد تمتد للمساعدة.

لم يكن النهوض من الرماد، مجرد استعارة شعرية. كانت ليلى تعيشها حرفياً كل يوم. المبنى الذي تحول إلى دار للأمل، بدأ رماداً قبل أن تُبث فيه الحياة. النساء اللواتي فقدن كل شيء، كنّ كرمادٍ بشري قبل أن يجدن في المركز بصيصاً لبداية جديدة. بغداد نفسها، المدينة التي تنهض دائماً من رمادها، تحمل آثار الحروق، لكنها لا تستسلم أبداً للموت. ترى ليلى نفسها جزءاً من هذا النسيج التاريخي، جزءاً من دورة حياةٍ لا تتوقف. "كيف يمكن أن لا يكون الخراب هو النهاية؟ هل هو أرض خصبة لبدايات جديدة، لأزهار لم نرها بعد؟" تقول للدكتورة سارة بينما كانتا تشربان الشاي على شرفة المركز المطلة على أزقة بغداد القديمة.

في ختام يوم طويل ومثمر في دار الأمل، تجلس ليلى وحيدة في مكتبها الصغير، تتصفح بعض التقارير. تتأمل في طبيعة الصمود الإنساني والتجدد المستمر. هل الصمود فطري فينا، أم أنه يولد من رحم المعاناة؟ هل هو قرار يتخذه المرء كل صباح، أم قوة خفية تدفعنا إلى الأمام؟ في عينيها، كان الصمود مزيجاً من الاثنين: إرادة لا تُقهر تنبع من الأعماق، وقرار واعٍ بالاستمرار، حتى عندما يبدو كل شيء ميؤوساً منه. "بغداد علمتني أن أتنفس الحياة، حتى عندما

منشورات «الفياء» AlIYaa

تخنقني الأوجاع. علمتني أن أبني، حتى عندما يهدمون." تهمس لنفسها.

تدخل عليها نور وسارة، تحملان معه أوراقاً وابتسامات متعبة. "اليوم كان جيداً، أليس كذلك؟" تقول سارة، بينما ترتشف من كوب الشاي الذي حضّرته ليلى.

"جيد، بقدر ما يمكن أن يكون يوماً في بغداد." تجيب ليلى بابتسامة باهتة. "لكننا نحقق فرقاً، وهذا يكفي."

"وأنتِ يا ليلى، ألا تفكرين في يوم لن يكون فيه هذا العمل ضرورياً؟" تسأل نور، عيناها ترنوان إلى الأفق، إلى مستقبلٍ قد يكون أكثر سلاماً.

تتنهد ليلى. "أتمنى ذلك يا نور. لكن حتى لو جاء هذا اليوم، ستبقى الحاجة إلى الأمل، إلى لمسة إنسانية، إلى تذكير بأننا قادرون على الشفاء. دار الأمل لن تكون مجرد مكان للعلاج، بل ستكون رمزاً. رمزاً لمدينة رفضت أن تموت."

في الأفق البعيد، شمس بغداد تميل نحو الغروب، ترسم لوحةً قرمزيّةً على نهر دجلة. المدينة لا تزال تحمل ندوبها، آثار دمار هناك، ورصاص على الجدران، لكن في مكان آخر، هناك أضواءٌ جديدة تومض. كان الأطفال يركضون في حديقة صغيرة أعيد تأهيلها، وبعض الشباب يضحكون على المقاهي. هذه المدينة، كليلى، تتعافى ببطء، بخطواتٍ متثاقلة أحياناً، لكنها لا تتوقف أبداً.

ترى ليلى النهر يتدفق بسلام، يحمل معه قصص الأمس واليوم. أدركت أن الحياة، مثل النهر، لا تتوقف أبداً عن الجريان. قد تعترضها صخور، وقد تعيش فوضى فيضانات، لكنها دائماً تجد طريقاً للتدفق، للتجدد، للحياة. وهي، ليلى، لم تعد مجرد ناجية، بل

منشورات «الفياء» «AlYaa»

أصبحت مهندسة حياة، تعيد تشكيل الواقع عبر اللغة والفعل، تزرع الأمل في القلوب، وتثبت أن بغداد، كروحها، لن تموت أبداً. ستظل تنتفض، تتجدد، وتُزهِر، لأن الأمل فيها أبدي، يتجاوز كل أشكال الفقد والمعاناة.

برلين - بوخ - 2019

منشورات «الفيـاء» «AlFyaa

منشورات «ألف ياء AlifYaa»

أزهار غاضبة

منشورات «ألف ياء «AlifYaa

منشورات «ألف ياء «AlfYaa

رائحة البنزين الممزوجة بعرق الرجال المتعبين، وزعيق الباعة المتجولين، وأزيز محركات السيارات المتهالكة، هي النشيد اليومي لبغداد. بغداد التي كانت ذات يوم مدينة ألف ليلة وليلة، أصبحت الآن مدينة ألف جرح وجرح. ليلى، ابنة الثلاثة وعشرين ربيعاً، تحمل هذا النشيد في رئتيها، في خلايا جسدها المتعب، وفي روحها التي تهوي نحو قاعٍ مجهول.

تجلس ليلى على شرفة شقتها المتواضعة في الدور الثالث، شرفةٌ تطل على مشهدٍ لا يتغير: أزقةٌ ضيقة تتلوى كالأفاعي، مبانٍ خرسانية رمادية تأكلها الرطوبة والإهمال، وأسلاك كهرباء متدلية كشرايين ميتة. هذه الشرفة أصبحت محراباً لليلى، مكاناً لتسكب فيه حبرها السري، وتُلقي فيه بكلماتها اللاذعة على صفحات دفترها العتيق. دفترٌ ذو غلافٍ جلدي باهت، كأنه يحمل في طياته أسرار قرونٍ مضت، لكنه في الحقيقة كان يحمل غضب جيلٍ كامل، جيلٍ وُلد في زمن الحرب، وترعرع على وعودٍ كاذبة، وماتت أحلامه قبل أن تُزهر.

"اللعنة على كل صباحٍ جديد يحمل معه رائحة الدم واليأس ذاتها!" كتبت ليلى بخطها المائل، الذي كان أشبه بصرخة مكتومة. "اللعنة على هذا الوطن الذي يلتهم أبناءه، يمصّ دماءهم، ويتركهم هياكل عظمية تمشي على أرضٍ كانت يوماً خصبة." تتدفق كلماتها كشلالٍ من النار، تعكس مرارة روحها. تخرجت ليلى من كلية الآداب، قسم اللغة العربية، بتقديرٍ ممتاز، لكن شهادتها ليست سوى مجرد ورقةٍ إضافية في كومة الأوراق التي لا قيمة لها في بلدٍ لم يعد

منشورات «الفياء» AlFyaa

يقدر العلم ولا الثقافة. عملت في عدة وظائف مؤقتة، من بائعة في محل ملابس إلى مساعدة في مكتبٍ عقاري، لكن كل وظيفة تُشبه الأخرى: رواتب زهيدة، استغلال بشع، وإحساسٌ دائم بأنها مجرد برغي صغير في آلةٍ صدئة تُديرها أيادٍ قذرة.

ترى ليلى في نفسها انعكاساً لكل شابٍ وشابةٍ في هذه المدينة. عيونٌ ذابلة، أكتافٌ منحنية، أحلامٌ مكسورة. تراهم في الأسواق، في المقاهي، في الشوارع، وجوهٌ شاحبة تحمل علامات الاستسلام. "أي مستقبلٍ ينتظرنا؟" تساءلت في دفترها. "هل سنُصبح يوماً ما كأجدادنا، نروي قصص أمجادٍ لم نعشها، ونحكي عن زمنٍ جميلٍ لم نُشهده؟ هل سنُصبح مجرد ذكرياتٍ باهتة في كتابٍ ممزق؟"

في إحدى الليالي الخانقة، حيث كان الهواء ثقيلاً كالحزن الذي يعتصر المدينة، جاء أيهم. أيهم، صديق طفولتها، الذي كان يُشاركها نفس الأحلام والآلام. كان وجهه هذه المرة يحمل مزيجاً من الإثارة والترقب، ونظراته تلمع بشيءٍ لم تره فيها منذ سنوات.

"ليلى، لدي أخبار!" قال بصوتٍ خفيض، كأنه يخشى أن يسمعه الجدران.

رفعت ليلى عينيها عن دفترها، أغلقت الغلاف الجلدي ببطء، وكأنها تُخبئ سراً ثميناً. "ماذا حدث؟ هل وجدت وظيفة أخيراً؟" سألت بتهكم.

ابتسم أيهم ابتسامةً مريرة. "أفضل من ذلك بكثير. حصلت على تأشيرة الهجرة إلى كندا."

سقطت الكلمات على ليلى كحجرٍ ثقيل. كندا. هذا الاسم الذي كان يتردد في أحاديث الشباب كالحلم المستحيل، كالنور في نهاية نفقٍ مظلم.

منشورات «الفياء AlYaa»

"تهانينا يا أيهم." قالتها بصوتٍ بالكاد مسموع، لكنها تشعر بلسعةٍ في قلبها. مزيجٌ من الفرح لأجله، والغصة على نفسها.

"ليلى، لماذا لا تُفكرين في الأمر؟" قال أيهم، اقترب منها وجلس على المقعد المقابل. "الفرصة ما زالت سانحة. يمكنني مساعدتك. هناك برامج للهجرة، خاصةً لمن لديهم شهادات جامعية. هناك مستقبل، هناك حياة حقيقية تنتظرنا هناك."

نظرت ليلى إلى عيني أيهم، رأت فيه ذلك الشغف الذي تفتقده في نفسها. "أيهم، أنت تعلم أنني لا أستطيع. والديّ، أمي المريضة، هذه الشقة التي هي كل ما نملك. كيف أتركهم؟"

"وكيف تعيشين هنا؟" قاطعها أيهم بحدة. "هل هذا ما تُسمينه حياة؟ هل هذا هو المستقبل الذي كنتِ تحلمين به؟ أن تكتبي كلماتك الحارقة في دفترٍ لن يقرأه أحد، وأن تموتي ببطءٍ في هذه المدينة التي لا ترحم؟"

كلماته تنهال كالسياط على روحها. تعلم أنه على حق، لكن شيئاً ما كان يربطها بهذه الأرض، جذورٌ عميقة لا تراها العين، لكنها تشدها بقوة.

"أنا أحب هذا المكان يا أيهم." همست، وكأنها تعترف بخطيئة. "أحب هذا الجنون، هذا الصخب، هذا التاريخ الذي يتدفق في شوارعه. حتى رائحة البنزين والعرق، أصبحت جزءاً مني."

ضحك أيهم ضحكةً مريرة. "الحب لا يُطعم خبزاً يا ليلى، ولا يُعيد الأموات، ولا يُشفي الجراح. الحب هنا مجرد وهم، أو ربما لعنة."

استمر النقاش لساعات، بين رغبة ليلى بالبقاء وتمسكها بوطنٍ لا

منشورات «الفياء» «AlFYaa»

يُبادلها الحب، وبين إلحاح أيهم على الهجرة، على الفرار من هذا السجن الكبير. كان أيهم يصف لها كندا كجنةٍ على الأرض: شوارع نظيفة، فرص عمل، حرية، أمان. بينما تتخيل ليلى نفسها غريبةً في أرضٍ غريبة، روحاً تائهة تبحث عن قطعةٍ من روحها التي تركتها خلفها.

في الأيام التالية، أصبحت فكرة الهجرة هاجساً يطارد ليلى. تراقب وجوه الناس في الشارع، تحاول أن تقرأ في عيونهم نفس الصراع. رأت في عيون الشابات الخوف من العنوسة، عند الوصول إلى سن العشرين، في مجتمعٍ يُقدّس الزواج ولا يُوفر فرصاً للعيش الكريم. رأت في عيون الشباب اليأس من الحصول على عملٍ يُؤمّن لهم لقمة العيش، أو حتى يُمكنهم من الزواج وتكوين أسرة. كان الفساد مُتفشياً كطاعونٍ أسود، يأكل الأخضر واليابس. كل وظيفة، كل فرصة، كل بصيص أمل، كان يتطلب واسطة، أو رشوة، أو تنازلاً عن الكرامة.

"هذا الجيل وُلد ليموت!" كتبت ليلى في دفترها، هذه المرة بحبرٍ أحمر، كأنه دمٌ يتدفق من جرحٍ غائر. "يموت ببطءٍ كل يوم، في كل صباحٍ لا يحمل جديداً، في كل ليلةٍ مليئة بالكوابيس. يموتون وهم أحياء، يدفنون أحلامهم بأيديهم، ويُلقون بآمالهم في نهرٍ لا يُعيد شيئاً."

تتجاوز كلماتها حدود اليأس الشخصي، لتُصبح صوتاً جماعياً لجيلٍ مُعذب. تكتب عن الفساد الذي نهب ثروات البلاد، عن السياسيين الذين يرقصون على أشلاء الوطن، عن رجال الدين الذين يبيعون الجنة والنار لأجل مصالحهم الشخصية. كانت تُفصّل، بلا خجلٍ أو تردد، كيف يُمكن لجسدٍ أن يُباع، لروحٍ أن تُذل، لكرامةٍ أن تُسحق، من أجل البقاء، من أجل لقمة عيشٍ مُلطخة بالعار.

منشورات «الفيـاء» AlYaa»

"رأيتُ الفتاة تبيع جسدها في زقاقٍ مظلم، لا لأنها فاسقة، بل لأنها جائعة. رأيتُ الشاب يُقبل يد سارقٍ مُتجبر، لا لأنه ذليل، بل لأنه يُريد وظيفةً تُنقذ عائلته من الفقر. رأيتُ الأم تبكي على قبر ابنها الذي مات بلا سبب، سوى أنه وُلد في هذا الجحيم. فهل بعد هذا تُطالبونني بالصمت؟ هل تُطالبونني بالوطنية العمياء؟"

كلماتها كقنبلةٍ موقوتة، تنتظر اللحظة المناسبة لتنفجر.

أم علي، جارتها العجوز التي تُشبه شجرة نخيل معمرة، تُراقب ليلى بصمت. أم علي، صاحبة التجارب مع خيبات العراق، تجلس على عتبة بابها، تُسبّح بحبات المسبحة البنية، وتُلقي ببعض الكلمات الحكيمة، أو ربما المُستسلمة.

"يا ابنتي، هذا قدرنا." قالت أم علي ذات يوم لليلى، عندما رأتها تُحدّق في الأفق بعينين دامعتين. "الأرض لا تُغادرنا، ونحن لا نُغادرها. حتى لو رحلنا بأجسادنا، ستبقى أرواحنا هنا، مُعلقةً بين النخيل ودجلة."

"لكن يا خالتي، أليس من حقنا أن نحلم بمستقبلٍ أفضل؟" سألت ليلى، صوتها مُرتعشاً.

"الحلم جميل، لكن الواقع قاسٍ يا ابنتي. عشتُ عمراً كاملاً هنا. رأيتُ هذا البلد يُزهر ويُذبل، يُنهض ويُسقط. رأيتُ رجالاً عظاماً يتحولون إلى رماد، ورماداً يتحول إلى طغاة. الأرض هي الأرض، والناس هم الناس. لا تتوقعي الكثير، كي لا تنكسري."

تُشبه كلمات أم علي صدى الماضي، صدى جيلٍ تعلّم الرضا بالمرارة، بينما ليلى تُحارب هذا الرضا، تُحارب الاستسلام.

مرت أسابيع، وأيهم يُعدّ العدة لرحيله. كان يزور ليلى باستمرار،

منشورات «الفياء» «AlYaa»

يُحدّثها عن إجراءات السفر، عن التذاكر، عن الأوراق الرسمية. كان يُحاول أن يُقنعها باللحاق به، يصف لها حياةً بلا خوف، بلا قلق، بلا فقر.

"تخيلي يا ليلى، أن تستيقظي كل صباح ولا تسمعي دوي انفجار، ولا تخافي من رصاصةٍ طائشة، ولا تُفكري كيف ستُدبرين قوت يومك."

هذه الكلمات تُشعل ناراً في صدر ليلى، ناراً من الرغبة في الفرار، ومن الخوف من المجهول، ومن الشعور بالذنب تجاه كل من سيبقى.

في إحدى الأمسيات، تلقت ليلى خبراً هزّها بعمق. صديقتها المقربة، مريم، التي تُشاركها أحلامها الأدبية، اعتُقلت. السبب؟ منشوراتٍ على صفحتها الشخصية في فيسبوك، تنتقد فيها الفساد الحكومي وتُطالب بالعدالة. لم تكن مريم قد كتبت شيئاً قاسياً، بل مجرد كلماتٍ بسيطة تعكس إحباطها. لكن في هذا البلد، تُعتبر الكلمات جريمة، والأحلام تُعتبر خيانة.

"أخذوها من بيتها في منتصف الليل!" أخبرتها والدة مريم عبر الهاتف، صوتها مُختنقٌ بالبكاء. "لا نعرف أين هي، ولا ماذا سيحدث لها."

سقط الهاتف من يد ليلى. شعرت ببرودةٍ تسري في عروقها. مريم. الفتاة الرقيقة التي تُحب الورد والشعر. الآن هي في غياهب السجون، ربما تُعذب، ربما تُهان، كل ذلك لأجل بضعة كلمات.

هذا الحدث كان بمثابة الشرارة التي أشعلت الغضب الكامن في أعماق ليلى. لم تعد تستطيع أن تصمت. لم يعد دفترها السري كافياً.

منشورات «الفياء» «AlfYaa»

في تلك الليلة، لم تنم ليلى. جلست على شرفتها، تحت ضوء القمر الخافت، وفتحت دفترها. لكن هذه المرة، لم تكتب كلماتٍ عادية. تُفكر في مريم، في عينيها الخائفتين، في صمتها المُرغم.

"سأصرخ!" قررت ليلى. "سأصرخ حتى لو قُطعت حنجرتي. سأصرخ حتى لو أُسكتوني للأبد."

بدأت تكتب، لا شعراً ولا نثراً عادياً، بل بياناً، صرخةً، هجوماً لاذعاً على كل ما هو فاسد ومُتغطرس.

"يا من تُسمّون أنفسكم قادة! يا من تُسمّون أنفسكم حُماة الوطن! أنتم لصوصٌ، أنتم قتلة، أنتم تجار دماءٍ وأرواح! سرقتم منا الماضي، سرقتم منا الحاضر، وتحاولون أن تسرقوا منا حتى المستقبل. سجونكم لا تُخيفنا، رصاصكم لا يُرعبنا، لأننا أمواتٌ أحياء، أرواحٌ ميتة، أجسادٌ تُصارع من أجل نفسٍ أخير. فماذا ستقتلون منا أكثر مما قُتل فينا؟"

كلماتها مُشبعةً بالغضب، باليأس، وبالتحدي. لم تكن تُفكر في العواقب، لم تكن تُفكر في الخوف. كان هناك شيءٌ ما قد انكسر داخلها، وحررها من كل القيود.

ثم، خطرت لها فكرةٌ مجنونة. "لن أبقى صامتة."

في صباح اليوم التالي، ذهبت ليلى إلى السوق، حيث تُباع الأقمشة. اشترت قماشاً أبيض كبيراً، وعلباً من الأصباغ بألوانٍ زاهية: أحمر، أسود، أزرق داكن.

عادت إلى شقتها، وأغلقت الباب على نفسها. بدأت تُفرد القماش الأبيض على أرضية الغرفة، وبدأت ترسم. لم تكن رسامة، لكنها تُجيد التعبير بالكلمات، والآن تُحاول أن تُعبّر بالصور.

منشورات «الفياء» «AlYaa»

رسمت وجوهاً شاحبة، عيوناً مُتعبة، أيدي مُمتدة تستجدي. رسمت نخيلاً ذابلاً، نهراً جافاً، سماءً رمادية. وفي وسط هذا كله، كتبت كلماتها، تلك الكلمات التي تدفقت من روحها المُعذبة. كتبت بالخط العريض، باللون الأحمر القاني، وكأنها تُلطخ القماش بالدم.

"هذا ليس وطناً، هذا سجنٌ كبير!"

"أحلامنا تُدفن تحت أنقاض فسادكم!"

"صرخاتنا ستُمزق صمتكم!"

تعمل بلا كلل، بلا توقف. الأصباغ تُلطخ يديها، ثيابها، وحتى وجهها. تُشبه فناناً مجنوناً، يُحاول أن يُخرج كل ما في داخله من غضبٍ وألم.

أنهت عملها في وقتٍ متأخر من الليل. تحولت قطعة القماش إلى لوحةٍ جدارية، تحمل صرخة جيلٍ كامل.

في صباح اليوم التالي، جاء أيهم ليودعها. كان يحمل حقيبة سفره، وعيناه تحملان خليطاً من الحزن والأمل.

"سأسافر اليوم يا ليلى." قال بصوتٍ خفيض. "الطائرة ستُقلع بعد ساعات. هل أنتِ متأكدة من قرارك؟ هل ستُبقين هنا؟"

نظرت ليلى إلى أيهم، ثم نظرت إلى اللوحة الجدارية المُلقاة على الأرض.

"نعم يا أيهم." قالت بحزمٍ لم يعرفه أيهم من قبل. "سأبقى."

"لكن لماذا يا ليلى؟ ما الذي ستفعلينه هنا؟ هل ستُعيدين كتابة كلماتك في دفترك السري؟ هل ستنتظرين دورك لتُعتقلي مثل مريم؟"

منشورات «AlYaa» الألفياء

"لا يا أيهم." قالت ليلى، وابتسامةٌ غامضة ارتسمت على شفتيها. "لن أبقى صامتة. ولن أُعتقل في الظلام. سأضيئ هذا الظلام، حتى لو كان ثمن ذلك حياتي."

لم يفهم أيهم ما تعنيه، لكنه رأى في عينيها بريقاً جديداً، بريقاً من الشجاعة والتحدي.

"سأفتقدك يا ليلى." قال أيهم، واحتضنها بقوة.

"وأنا أيضاً يا أيهم. اذهب، وابنِ حياتك. لكن لا تنسَ هذا المكان، لا تنسَ من تركتهم خلفك."

غادر أيهم، تاركاً ليلى وحدها مع لوحتها الجدارية، ومع قرارها الذي سيُغير حياتها.

في الليلة التالية، تُخطط ليلى لعمليتها. تُفكر في المكان المناسب، في الوقت المناسب. اختارت جسر الشهداء، ذلك الجسر العتيق الذي يربط ضفتي دجلة، والذي شهد أحداثاً تاريخية كثيرة، ومرّ عليه أجيالٌ وأجيال. كان رمزاً للمدينة، ولصمودها، ولجراحها.

الساعة تُشير إلى الثانية فجراً. الشوارع شبه خالية، عدا بعض السيارات المارة ورجال الشرطة الذين كانوا يقومون بدورياتهم الروتينية. ارتدت ليلى ملابس سوداء، وأخفت اللوحة الجدارية الكبيرة تحت معطفها الطويل. تُسمع دقات قلبها بوضوح في صمت الليل. لم تكن خائفة، بل مُتحمسة، مُمتلئة بإحساسٍ غريبٍ من الحرية.

وصلت إلى الجسر. كان الهواء بارداً، ورائحة النهر تُنعش الروح. نظرت إلى المياه المتدفقة، مُتخيلةً أنها تحمل معها كل الأحزان والآلام.

منشورات «الفيـاء» «AlYaa»

كان هناك عمودٌ خرساني كبير في منتصف الجسر، كان مثالياً لتعليق اللوحة. تسلقت ليلى العمود بصعوبة، وربطت اللوحة بإحكام بالحبال التي أعدتها. ثم، تراجعت قليلاً، ونظرت إلى عملها.

اللوحة الجدارية تُضيء في الظلام، كلماتها الحارقة تصرخ في وجه الليل. رسالةً واضحة، صارخة، لا تُخطئها العين.

قبل أن تُغادر، أخرجت ليلى هاتفها المحمول، والتقطت صوراً للوحة. ثم، أرسلت الصور إلى مجموعةٍ من الصحفيين والناشطين الذين تعرفهم عبر الإنترنت، وكتبت رسالةً قصيرة: "صرخة من قلب بغداد. لا تُصمتوها."

ثم، غادرت الجسر، تاركةً وراءها رسالتها، وقطعةً من روحها.

في صباح اليوم التالي، استيقظت بغداد على ما أرادته ليلى. انتشرت صور اللوحة الجدارية عبر وسائل التواصل الاجتماعي. الصحف والمواقع الإخبارية تناقلت الخبر. "صرخة غضب من مجهول على جسر الشهداء!" "فنانٌ سري يُفضح فساد الدولة!"

الكلمات الحارقة التي كتبتها ليلى أصبحت على كل لسان. "هذا ليس وطناً، هذا سجنٌ كبير!" أصبحت شعاراً جديداً لجيلٍ كامل.

السلطات في حالة تأهب. بدأت التحقيقات، وبحثت عن "الفنان المجهول" الذي تجرأ على تحدي النظام.

تُراقب ليلى من منزلها، ردود الأفعال، تشعر بمزيجٍ من الرضا والخوف. لم تكن تتوقع أن يكون التأثير بهذا الحجم.

في غضون ساعات، تم إزالة اللوحة الجدارية من قبل السلطات، لكن الأوان كان قد فات. وصلت الرسالة. الصور انتشرت.

في الأيام التالية، بدأت الشرطة في البحث عن الفاعل، وتحولت

منشورات «الفـياء» «AlYaa»

وشاية من أحدهم إلى البحث عن ليلى. كانوا يزورون المنازل في الحي، يستجوبون الناس، يُهددون. الخوف بدأ يتسلل إلى قلب ليلى التي تعلم أن ما فعلته كان خطيراً عليها، لكنها لم تندم.

جاءت أم علي إلى منزل ليلى، وعيناها مليئتان بالقلق.

"يا ابنتي، ما هذا الذي فعلتِه؟ هل جننتِ؟" قالت أم علي، وهي تُمسك بيد ليلى. "إنهم يبحثون عنكِ. حياتكِ في خطر."

"لا يهمني يا خالتي." قالت ليلى بصوتٍ هادئ. "قلتُ ما يجب أن يُقال. أطلقتُ صرخةً مُكبلةً في صدري لسنوات."

"لكن ماذا بعد؟" سألت أم علي. "هل ستُغيرين العالم بقطعة قماشٍ وبعض الكلمات؟"

ابتسمت ليلى ابتسامةً حزينة. "ربما لا أُغير العالم يا خالتي، لكنني لن أسمح للعالم أن يُغيرني. لن أسمح لهم أن يُصمتوني. اخترتُ طريقي. اخترتُ البقاء، اخترتُ المقاومة، حتى لو كانت هذه المقاومة مجرد كلماتٍ على قطعة قماش."

في المساء، جاءت الشرطة إلى منزل ليلى. طرقت الباب بقوة.

نظرت ليلى إلى والدتها المريضة، ثم إلى والدها العاجز. رأت في عيونهما الخوف، لكنها رأت أيضاً فخراً صامتاً.

"لا تخافوا." قالت ليلى بصوتٍ ثابت. "حان الوقت."

فتحت الباب. وقف أمامها ضابطان بوجوهٍ عابسة.

"ليلى أيهم؟" سأل أحدهما.

"نعم، أنا هي." أجابت ليلى، رافعةً رأسها عالياً.

"أنتِ مطلوبة للتحقيق."

منشورات «الفــيـاء AlFyaa»

"أعلم." قالت ليلى. "وكنتُ أنتظركم."

لم تُقاوم. لم تصرخ. مشت معهم ببطء، بخطواتٍ ثابتة، وكأنها ذاهبة إلى موعدٍ مُنتظر.

وهي تُغادر، التفتت ليلى إلى أم علي، التي تقف على عتبة بابها، وعيناها تُذرفان الدموع.

"لا تبكي يا خالتي." قالت ليلى بصوتٍ واضح. "هذه ليست نهاية الطريق. هذه مجرد بداية."

ثم، نظرت إلى شرفة شقتها، إلى السماء المليئة بالنجوم، إلى نهر دجلة الذي كان يتدفق بهدوء.

شعرت بسلامٍ غريبٍ في قلبها. اختارت طريقها. لم تهاجر بجسدها، لكنها هاجرت بروحها إلى عالمٍ آخر، عالمٍ من الشجاعة والتحدي، عالمٍ تُصبح فيه الكلمات أسلحة، والفن ثورة.

أُغلقت أبواب سيارة الشرطة خلفها، وانطلقت السيارة في شوارع بغداد المظلمة. لكن ليلى لم تكن تشعر بالظلام. كانت تشعر بضوءٍ يُشرق من داخلها، ضوءٍ لا يُمكن لأي سجنٍ أن يُطفئه، ولا لأي سلطةٍ أن تُخفيه.

تعلم أن رحلتها لم تنتهِ بعد. بل إنها بدأت للتو. رحلةٌ ستُكتب فصولها في غياهب السجون، أو ربما على جدرانٍ أخرى، أو ربما في قلوبٍ أخرى.

برلين - بوخ - 2020

منشورات «الفـيـاء» AlfYaa«

وشم الجحيم

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء «AlfYaa

تنفس بغداد، مدينة ألف ليلة وليلة، يتكثف في حلق ليلى كغبار محمل بالبارود واليأس. عام 2007 ينسج خيوطه حول قلب العراق، خيوطاً من الرعب والشك، وحبالاً غليظة تلتف حول أعناق العابرين. ليلى تمشي الآن، خطواتها تلامس رصيفاً قديماً تحت سماء رمادية، تحمل كتبها الجامعية التي تبدو ثقيلة ككتل من الرصاص. هي لا ترى الألوان الزاهية في ملابس البائعات، ولا تسمع ضحكات الأطفال الخالية من الهموم، بل تترصد الظلال، تتوجس من كل سيارة عابرة، من كل نظرة عابرة. الهواء يلسع وجهها، لكن برودة الخوف تغلغل في عظامها أعمق من برد الشتاء البغدادي.

إنها في قلب العشرينيات، زهرة بغدادية تتفتح رغم كل شيء. عيناها تحملان بريقاً خاصاً، مزيجاً من حلم فتاة صغيرة تتوق للمستقبل، ووجل امرأة شابة تعيش في زمن يتآكل فيه كل شيء. شعرها الأسود، كليل بغدادي، يتراقص خفيفاً خلفها، يرسل إشارات صامتة عن حياة لم تُعاش بعد، عن أحلام لم تُحقق. قلبها، رغم ضجيج الحرب، لا يزال ينبض بحب الحياة، يخطط لغدٍ أفضل، لدراسة تنهيها وتخرج منها إلى نور الحياة الواسعة.

لكن الأقدار أحياناً تختار أن تكتب فصولاً دموية في حكاياتنا دون استئذان. يتوقف الزمن، أو ربما يتسارع بجنون، حين تتوقف تمر بحاجز لمجموعة من المسلحين عند أحد جدران بغداد المقطعة الأوصال. أيادٍ غليظة تمتد، تلتف حول جسدها النحيل قبل أن تدرك حتى ما يحدث. كيسٌ أسود خشن يُلقى فوق رأسها، يطمس الرؤية،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

يسرق الأنفاس، ويغرقها في عتمة مطلقة. صوتها، الذي كان قبل لحظات يهمس بأغنية قديمة، يُحبس في حنجرتها، يتحول إلى صرخة صامتة لا يسمعها أحد سوى جدران الروح.

تنطلق بها، لاحقا، سيارة بسرعة، والجسد يرتجف داخل الكيس، يُرمى بعنف إلى مقعد خلفي. تتصارع ليلى مع الظلام والخوف، أظافرها تحفر في الكيس الخشن في محاولة يائسة للتمسك ببارقة ضوء، بهواء نقي. رائحة غريبة تتسرب إلى أنفها، مزيج من العرق الرجولي، والغبار، والبنزين، والخوف. رأسها يرتطم مراراً وتكراراً بجسم صلب، تُجَرُّ، تُدْفَعُ، تفقد إحساسها بالاتجاه، بالوقت. هل هي لحظات؟ ساعات؟ أيام؟ يتلاشى وعيها شيئاً فشيئاً، وتتحول هي إلى مجرد كتلة من اللحم والخوف، تائهة في محيط من الرعب.

تستيقظ ليلى، أو ربما تُدفع للاستيقاظ، على أرضية باردة خشنة. الكيس الأسود قد أُزيل، لكن الظلام لا يزال سيد المكان. غرفة صغيرة، جدرانها تتقشر، وسقفها يهتز مع كل صوت قادم من الخارج. رائحة الرطوبة والعفن تملأ الأنفاس، وصمت ثقيل يتخلله صوت تنقيط ماء متواصل من زاوية ما. هي لا ترى شيئاً بوضوح في هذا العتمة الكثيفة، لكنها تشعر بوجود شيء ما، أو أشخاص ما. قلبها يخفق بجنون، طبلاً إيقاعه يتسارع، يضرب ضد أضلاعها.

تتسرب أضواء خافتة من فتحات صغيرة، تكشف عن ظلال تتحرك. رجال. ثلاثة، أو ربما أربعة. وجوههم مغطاة جزئياً، أو ربما عيناها المذعورة ترفض رؤيتهم بوضوح. صوتٌ جهوري يكسر الصمت، كلمات خشنة، لا تتجمع ليلى منها سوى همهمات لا تحمل معنى، أو ربما لا تريد أن تحمل معنى. جسدها يتشنج، يتقلص على نفسه في محاولة يائسة ليصبح أصغر، غير مرئي. تتوسل عيناها، تتوسل روحها، أن يختفي هذا الكابوس.

منشورات «الفـبـاء» AlfYaa»

لكن الكابوس لم يكن سوى البداية. الأيدي تمتد مجدداً، ليس لترميها في كيس، بل لتنزع عنها كل غطاء، كل حماية. ملابسها تُمزق بقسوة، وكرامتها تُداس تحت أقدامهم. تتجمد ليلى، لا صرخات تخرج منها، لا دموع تسيل، كأن جسدها قد انفصل عن روحها، كأنها تشاهد فيلماً رعباً لشخصية أخرى. تشعر بالبرد يتخلل مسامها، ثم بحرارة الأيادي الخشنة، ثم بالضغط، بالألم، بالاختراق.

المرة الأولى كانت كصاعقة. مفاجئة، وحشية، تقتلع الروح من الجسد. والمرات التي تلتها، أشد وطأة، لأنها تتوقعها. تعلم ما سيأتي، وتنتظرها في صمت مميت، في استسلام يائس. يتداخل الليل بالنهار في هذه الحفرة المعتمة، تفقد ليلى إحساسها بالزمن، بالذات. تصبح مجرد أداة، مجرد جسد يُسلب منه كل شيء، حتى حق الوجود. تطفو على سطح الألم، وتغرق في قاع اليأس. عيناها تحدقان في السقف المتصدع، تبحثان عن نجمة، عن بصيص نور، عن أي إشارة إلى أن هناك عالماً آخر، عالماً حقيقياً خارج هذا الجحيم. لكنها لا تجد سوى الظلمة.

كل اعتداء يترك ندبة جديدة، ليس فقط على جسدها المتورم، بل في أعماق روحها. تتكسر أجزاء منها، تتفتت، وتتبعثر في زوايا الغرفة الباردة. تختفي الفتاة التي تحلم بالكتب والجامعة، وتحل محلها روحٌ مشوهة، هشة، تتوسل الموت خلاصاً. الصمت يصبح ملاذها الوحيد، الصمت الذي تتبناه رداً على وحشية العالم، الصمت الذي يخفي خلفه صرخات مكتومة، وآلاماً لا تُعد ولا تُحصى.

ثم، فجأة كما بدأت، انتهت تلك الأيام، أو الليالي، التي تداخلت حتى فقدت معناها. تُرمى ليلى مرة أخرى، ليس في سيارة، بل على قارعة طريق مظلمة. البرد يلف جسدها العاري تقريباً، لكنها لا تشعر به. الألم الداخلي أشد وأقوى من أي برد خارجي. تفتح عينيها

منشورات «الفياء» AlYaa»

ببطء، وتحدق في سماء بغداد التي لم تتغير. القمر هناك، مكتمل، يشع بضوء باهت، كأنه شاهد صامت على كل ما حدث، على كل المآسي التي تعيشها هذه المدينة. يضيء وجهها الشاحب، عينيها المتسعتين من الرعب، جسدها المرتعش، الذي يروي قصة ألف مأساة.

تزحف ليلى على أربع، تجر أطرافها المرتعشة، تبحث عن ظل، عن مكان تختبئ فيه من عيون العالم. تجد قطعة قماش بالية، تتستر بها، وتستمر في زحفها في الشارع المهجور، حيث لا يسمع صرخاتها أحد، ولا يرى ضعفها أحد. كل خطوة مؤلمة، كل حركة تذكرها بما حدث. تتسلل إلى روحها خيوط من الشك والذنب، هل هي السبب؟ هل فعلت شيئاً خاطئاً؟ صوتٌ خفي يهمس في أذنها: "أنتِ لم تعودي ليلى."

بالكاد تبلغ منزل أهلها. الباب يفتح، وتطل منه عينا أمها الغارقة في الدموع والوجل. صرخة تخرج من حنجرة الأم، صرخة ممزوجة بالخوف، والأسى، وربما الإنكار. الأب يقف في الخلف، وجهه متحجر، نظراته تتأرجح بين الغضب والخيبة. لا عناق دافئ، لا كلمات مواساة، بل نظرات مُحمَّلة بالعار.

يتجمع الأهل، الأعمام والعمات، أبناء العمومة. الوجوه التي تحمل لها الود في السابق، تتجمد الآن، تتصلب. الهمس يبدأ، كالخناجر الباردة التي تغرس في جسدها الضعيف. "لقد عادت." "ماذا حدث لها؟" "أين كانت؟" لا أحد يسألها عن ألمها، عن رعبها، عن روحها المكسورة. الكل يبحث عن العار، عن وصمة تُضاف إلى جبين العائلة.

تقف ليلى في منتصف الصالون، كتمثال من رخام، عيناها

منشورات «الفيلياء» «AlFyaa»

فارغتان، لا تستطيع النطق بكلمة واحدة. كلما حاولت، اختنقت الكلمات في حلقها. كيف تشرح لهم أن روحها قد دُنِّست، أن جسدها قد تحول إلى ساحة معركة، وأنها لم تعد هي؟ إنهم لا يرون فيها ضحية، بل يرون فيها عبئاً، وصمة عار لا تُغتفر.

والدها، الذي كان في السابق مصدر قوتها وسندها، ينظر إليها الآن كغريبة. كلماته قاسية، يتردد فيها صوت الخوف على السمعة أكثر من صوت الأبوة. "ماذا سنقول للناس؟" "كيف نرفع رؤوسنا؟" لا مواساة، لا احتضان، بل اتهام صامت. أمها، المسكينة، تتأرجح بين البكاء والعجز، لا تملك قوة مجابهة سطوة الأب والعائلة، تكتفي بالنظر إلى ابنتها بعينين تائهتين.

تجد ليلى نفسها في زنزانة جديدة، زنزانة من العزلة والخزي داخل منزلها. يُمنع عليها الخروج، تُسحب منها كل مظاهر الحياة الطبيعية. لا جامعة، لا لقاءات مع الأصدقاء، لا حتى نظرة إلى السماء من الشرفة. أصبحت شبحاً في منزلها، تسير في الظلال، تأكل بصمت، وتنام ودموعها تحفر مجاري على خدها. الليالي الطويلة تلتهمها، تتسلل إليها كوابيس مرعبة، تعيد مشهد الأيدي الغليظة، والظلام، والألم.

الخوف يتزايد يوماً بعد يوم. ليس الخوف من الماضي، بل الخوف من الحاضر والمستقبل. أحد أقاربها، رجلٌ جلف ومتعصب، يُعرف بسلاطة لسانه وقسوة قلبه، يبدأ بصب الزيت على النار. يصرخ في المجالس العائلية أن وجود ليلى في البيت "عار لا يُحتمل"، وأنها يجب أن "تُخفى" أو "تُغسل بدمها". كلماته لا تقع على آذان صماء، بل تجد صدى في قلوب بعض الرجال المتطرفين في العائلة. تشعر ليلى أن خناجرهم معلقة فوق رأسها، تنتظر اللحظة المناسبة لتسقط.

منشورات «ألف ياء» «AlifYaa»

تستمع ليلى للهمسات، للنظرات التي تُطلق عليها في كل مرة يمر فيها هذا القريب. يراها كعلامة سوداء في سجلهم الأبيض، كوصمة عار لا تمحى. تتفهم أنها لا تملك خياراً. إما أن تبقى وتموت ببطء، جسداً وروحاً، أو أن تهرب، أن تفر بجلدها من هذا القبر الاجتماعي الذي حفر لها. قرار الهروب ليس قراراً سهلاً، بل هو قرار موت آخر، موت كل ما تبقى من حياتها القديمة، موت كل أمل في العودة إلى ما كانت عليه.

في ليلة حالكة، بينما يغط الجميع في نوم عميق، تتسلل ليلى من المنزل. لا حقيبة تحملها، لا وداع لأحد. فقط بضعة أوراق نقدية أخفتها بعناية، وكمية من الأكل. تخطو في شوارع بغداد المهجورة مجدداً، لكن هذه المرة برغبة في الحياة، برغبة في النجاة. خلفها تترك تاريخاً من الألم، ومنزلاً لم يعد ملاذاً، ومجتمعاً لفظها. أمامها يمتد المجهول، ظلامٌ آخر، لكن هذه المرة تختار هي أن تدخل إليه. هي لا تعرف إلى أين ستذهب، لكنها تعلم أن عليها أن تذهب بعيداً، بعيداً جداً.

السنوات تمر، كحلم مؤلم، كسراب يتبع سراباً. منذ أن تركت بغداد، تركت كل ما تعرفه، وكل من عرفها. الآن، في مدينة أخرى، بعيدة جداً، ربما في بلد آخر، تعيش ليلى حياةً جديدة، حياة بَنَتّها بأظافرها، بدموعها، وبكل ذرة أمل تبقت لديها. اسمها تغير، هويتها تغيرت. تعمل في وظيفة بسيطة لا تتطلب الكثير من التواصل، في مكتب هادئ، أو في مقهى صغير حيث لا يلاحظها أحد. ترتب أمور معيشتها ببطء، بصبر، بخوف دائم من أن ينكشف سرها. شقة صغيرة، أثاث قليل، حياة منظمة بعناية فائقة، لكنها فارغة من الداخل.

ترى ليلى انعكاسها في مرآة غرفتها الصغيرة. امرأة تسير نحو

منشورات «الفياء» «AlYaa»

الثلاثينيات من عمرها، ما زالت عيناها تحملان ذلك البريق الحزين، لكنهما أصبحتا أعمق، أشد إظلاماً. خطوط الزمن والخوف حفرت ملامح جديدة على وجهها. شعرها لا يزال أسود كليل بغدادي، لكنه أصبح أقل لمعاناً، أقل حيوية. هي لم تعد تلك الفتاة التي تحلم بالكتب والجامعة، بل هي امرأة تتآكلها الهواجس.

كل يوم هو صراع. كل ليلة هي معركة. الأشباح تتبعها، تتسلل إليها من كل زاوية. أصوات صاخبة لرجال عابرون تعيدها إلى ذلك اليوم المشؤوم في عام 2007. رائحة عطر رجولي معين، أو رائحة تراب مبلل، تفتح أبواب الذاكرة على مصراعيها، وتلقي بها في هاوية الكوابيس. تراودها صور الظلال، الأيادي الغليظة، الظلام، الألم الذي لا يزول. تشعر بالغثيان، بضيق في التنفس، كأن تلك الأيدي الخشنة ما زالت تخنقها.

إنها تعاني من اضطراب نفسي عميق، يلتف حول روحها كوشاح من الجليد. الذاكرة كخنجر مثلوم، تضرب في أعماقها بين الحين والآخر، تتركها تلهث، وتتأرجح بين الواقع والماضي. تنتابها نوبات من الهلع المفاجئ، تُجبرها على الاختباء في زوايا غرفتها، تحتضن نفسها، تتوسل الصمت أن يعود. القلق الدائم يرافقها كظلها، خوف مقيم من كل غريب، من كل نظرة، من كل كلمة. تشعر وكأن العالم كله يراقبها، يرى وصمة العار التي لا يراها أحد سواها.

الإحساس بالغربة. إحساسٌ لا يفارقها. هي غريبة في هذا المكان الذي تعيش فيه، لا تنتمي إليه، لا تعرف جذوره. لكنها الأشد غربة عن ذاتها. تلك الفتاة القديمة، ليلى ابنة بغداد التي كانت، قد ماتت في عام 2007. والآن، هي كائن جديد، مجزأ، لا يجد في نفسه ما يربطه بالماضي، ولا ما يدفعه نحو المستقبل. هي هوية مفقودة، روحٌ بلا شخصية.

منشورات «ألف ياء» AlYaa

كل علاقة إنسانية تبدو مستحيلة. كلما اقترب أحدهم، كلما شعرت بالتهديد، بالخوف من الكشف، من الحكم. تضع حواجز غير مرئية حولها، أسواراً عالية تحمي ما تبقى من هشاشتها. الصداقات السطحية هي أقصى ما تستطيع تقديمه، علاقات بلا عمق، بلا مشاركة حقيقية. أما الحب، فهو كلمة لم تعد تعني لها شيئاً، أو ربما تعني الألم والخيانة. جسدها، الذي كان في السابق مصدراً للحياة والجمال، أصبح ذكرى مؤلمة، كياناً مُدَنَّس، لا يمكن أن يُشارك، لا يمكن أن يُحب.

المستقبل؟ أي مستقبل تتحدث عنه ليلى؟ إنه ضائع. لا ترى فيه زواجاً، لا أطفالاً، لا أسرة. ترى فقط استمراراً لهذا الخوف، لهذه الوحدة، لهذه الغربة. حياتها أصبحت انتظاراً، انتظاراً ليوم لا يأتي، ليوم تُشفى فيه الروح، ليوم تتوقف فيه الأشباح عن مطاردتها. لكن ذلك اليوم يبدو بعيداً، بعيداً جداً، كسراب في صحراء واسعة.

تجذب ليلى نفسها الآن، في هذه اللحظة، من غياهب ذكرياتها الأليمة. تشرب كوباً كبيرا من الشاي الساخن الذي يدفئ يديها المتجمدتين، لكنه لا يدفئ روحها. تنظر من نافذة شقتها الصغيرة إلى المدينة الصاخبة بالأسفل. الأضواء تتلألأ، السيارات تمر بسرعة، الناس يسيرون في عجل، كل منهم يحمل قصته الخاصة، أمله الخاص. هي جزء من هذا المشهد، لكنها ليست منهم. هي فقاعة شفافة وسط بحر من البشر، موجودة وغير موجودة في آن واحد.

القمر يطل عليها مجدداً، كصديق قديم، كشاهد أبدي. يضيء وجهها، يكشف عن دمعة واحدة تنساب بصمت على خدها. لا تتساءل ليلى عن العدالة، ولا عن الانتقام. هي تعلم أن بعض الجروح لا تُشفى، وبعض الآلام لا تزول. هي فقط تتساءل: متى يتوقف هذا الرعب؟ متى يعود لها السلام؟ هل ستجد في يوم من

منشورات «الفياء» «AlYaa»

الأيام مكاناً تنتمي إليه، مكاناً تتوقف فيه الهواجس عن مطاردتها؟

لا إجابة. ليس هناك إجابة. تنهض ليلى ببطء، وتطفئ الأضواء. الظلام يعم الغرفة، تماماً كما يعم الظلام روحها. تستلقي على سريرها، تغمض عينيها. تعلم أن الليل سيحمل معه الأشباح مجدداً، وأنها ستخوض معركتها الصامتة مرة أخرى. هي الناجية، هي الباقية، لكنها أيضاً السجينة. سجينة الماضي، سجينة مجتمعها، وسجينة ذاتها. ولا تملك مفتاحاً لخلاصها. تستمر في العيش، تتنفس، تتحرك، لكنها تعرف في أعماقها أن جزءاً منها قد مات في ذلك اليوم من العام المشؤوم، عام 2007، في شوارع بغداد المعذبة. وهي تستمر في السير، على حافة الهاوية، تنتظر ما يخبئه لها الغد، أو ربما لا تنتظر شيئاً على الإطلاق، سوى استمرار هذا النبض الخافت الذي يرفض الاستسلام.

برلين - بوخ - كانون1- 2019

منشورات «الفياء AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

ريح الهواجس

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

منشورات «ألف ياء «AlfYaa

كانت برلين، في عينيها، قطعة حلوى مرّة. لامعة من الخارج، مزينة ببريق كاذب من الأمل والوعود، لكنها تخفي في جوفها مرارة لاذعة، طعماً لا يزول من الخسارة والوحدة. عشر سنوات مرت، عشر سنوات منذ أن مزقت بغداد نفسها، ومزقت معها روح ليلى. عشر سنوات منذ أن فرت، لا تحمل معها سوى ندوب غير مرئية وجثة قلبها الممزق.

تعيش ليلى في شقة صغيرة أنيقة في بوخ من ضواحي برلين، ساعدتها غريت، المرأة البرلينية، في الحصول عليها، وجعلها ذلك تخطو أولى خطوات الأمان، نوافذها تطل على شارع واسع تصطف على جانبيه أشجار الكستناء العتيقة. تتحدث الألمانية بطلاقة تفوق أحياناً لغتها الأم، وتتنقل بين الاجتماعات والمشاريع وأماكن العمل ببرود احترافي يثير الإعجاب. لكن خلف تلك الواجهة المصقولة، هناك فوضى عارمة، عاصفة لا تهدأ من الهواجس.

تستيقظ كل صباح، قبل الفجر، ليس بدافع النشاط، بل بدافع القلق. الصور تتدفق، أصوات الماضي تتصارخ في أذنيها، رائحة الدم والبارود تخنقها حتى في هواء برلين النقي. تنهض، تتناول قهوتها السوداء كالفحم، وتمارس رياضة اليوغا في صمت، محاولة يائسة لترويض الجسد الذي خانها يوماً، ولتهدئة العقل الذي لم يتوقف عن العيش في رعب.

"ليلى، هل أنتِ بخير؟ تبدين شاحبة اليوم." هذه جملة تسمعها كثيراً من زميلتها "مارتينا" في المكتب. تبتسم ابتسامة باهتة، "نعم،

منشورات «الفياء» «AlYaa»

فقط لم أنم جيداً." كذبة بيضاء اعتادت عليها، كذبة تخفي تحتها ليالي طويلة من الأرق، وليالٍ أقصر من الكوابيس التي تكسر حواجز الزمن والمكان، وتلقي بها مرة أخرى في جحيم 2007.

كان عام 2007 لعنة. ليس مجرد تاريخ، بل نقطة تحول، لحظة انشطار روحي. ليلى في الثالثة والعشرين من عمرها، أنهت كلية الصيدلة، مخطوبة لـ "أنس"، حب حياتها، الذي كان يرى في عينيها مستقبلاً مشرقاً، مستقبلاً لم يتحقق أبداً. كانت بغداد يومها مدينة الأشباح، مدينة تراقصها الميليشيات والقاعدة والموت، لكنها ما زالت بغدادها، وطنها، حيث تشعر بالانتماء، حيث كان قلبها ينبض بالحب والأمل.

في تلك الليلة المشؤومة، تجتمع عائلة ليلى في منزلهم الصغير في حي الكرادة. كان حظر التجول قد بدأ، لكن صوت الرصاص لم يتوقف. كان أنس قد اتفق معها ليلتقيا ثم يوصلها لبيت أهلها وقد يقضي السهرة معهم.أتى لزيارتهم، متحدياً الخطر ليقضي ساعة إضافية بجانبها. كانا يجلسان في غرفة المعيشة، يتبادلان الضحكات الخافتة والأحلام المستقبلية، بينما والدتها تعد الشاي ووالدها يقرأ الجريدة بصوت مسموع، يحاول جاهداً أن يوحي بالهدوء في خضم الفوضى.

فجأة، اهتز المنزل. ليس انفجاراً بعيداً، بل اقتحاماً وحشياً. أبواب تحطمت، صراخ، أصوات أحذية عسكرية ثقيلة. "افتحوا الباب!" صوت جهوري أمر باللغة العامية. كان أنس أول من نهض، وجهه شاحب، لكن عينيه تشتعلان بجرأة يائسة. "اختبئوا!" همس لها، ثم هرع نحو الباب الأمامي.

لم تدرك ليلى ما حدث بعد ذلك إلا في كوابيسها التي تكررت

منشورات «الفياء» «AlYaa»

آلاف المرات. لم تكن مجرد ذكريات، بل تجارب جسدية، حواس تتأجج وكأنها تعيش اللحظة من جديد. ترى أنس وهو يُسحب بعنف إلى الخارج، تراه يتلقى ضربات متتالية، تسمع صرخاته التي سرعان ما خفتت. ثم جاء دورها.

مختبئة خلف الأريكة، ترتجف كعصفور مبلل. لكنهم وجدوها. أيدٍ خشنة سحبتها من شعرها، رائحة عرق ودخان وخوف تملأ أنفها. كانوا ثلاثة رجال، وجوههم ملثمة، عيونهم تلمع بشهوة مريضة خلف الأقنعة. تصرخ والدتها، تتوسل، تتشبث بأقدامهم، لكنها دُفعت بعيداً بقسوة. والدها حاول المقاومة، لكنه أُسقط أرضاً بضربة بندقية.

اللحظات التالية كانت ضباباً من الألم والرعب. لم يكن هناك صراخ، بل فقط أنين مكتوم خرج من حلقها. الأيدي تمزق ملابسها، الأجساد الثقيلة تضغط عليها، الأنفاس الساخنة تلوث وجهها. تتمنى الموت، تتوسل إليه أن يأتي ويخلصها من هذا الجحيم. لم يكن جسدها ملكاً لها في تلك اللحظة، بل أصبح ساحة معركة، ساحة انتصرت فيها الوحوش على آدميتها. تشعر بالتمزق، ليس فقط جسدياً، بل روحياً. كل خلية فيها تصرخ، ترفض، لكن لا أحد يسمع.

عندما انتهوا، تركوها ملقاة على الأرض، جسدها مجروح، روحها ممزقة. كان أنس ملقى بجانبها، عيناه مفتوحتان على اتساعهما، تحدقان في السقف بلا حياة. دمه يختلط بدمها، رائحته تفوح في الغرفة، رائحة الموت التي التصقت بها منذ تلك الليلة. لم تبكِ. لم تستطع. تجاوزت مرحلة البكاء، تجاوزت مرحلة الشعور. تحولت إلى كتلة من الفراغ، من الصقيع، من العدم.

بعد تلك الليلة، لم تعد ليلى هي نفسها. أصبحت جسداً بلا روح، ظلاً يتحرك في عالم لا ينتمي إليه. فرت من بغداد بعد أسابيع قليلة،

منشورات «الفياء» AlYaa«

تاركة وراءها عائلة محطمة، ومدينة لا تحمل لها سوى الألم. دمشق محطتها الأولى. تداوت من بعض مظاهر جراح الروح، واحتفظت بأغلبها. لم تستطع استيعاب وجودها في مدينة انتقل لها مليون أنسان عراقي. ترى جروح روحها في ملامح أياً منهم، وترى خوفها فيهم. رتبت أمورها لتصل إلى برلين بعد سنوات من العيش في أرض الشام. برلين المدينة التي يجتمع فيها العالم بطريقة مصغرة، لكنها لم ترَ فيها سوى الغربة.

في برلين، بنت ليلى لنفسها حياة جديدة، أو بالأحرى، حصناً. حصناً من العمل الشاق، من العزلة الاختيارية، من الوجوه الباردة والابتسامات المجاملة. ترفض الاقتراب من أي شخص، تخاف من أي لمسة، أي نظرة قد تخترق قشرتها الهشة. كان الحب بالنسبة لها كابوساً. مجرد فكرة الاقتراب الجسدي من رجل كانت تثير فيها موجات من الغثيان والذعر. تشعر بالاشمئزاز من جسدها، من كونه قد دُنّس، قد استُخدم، قد فقد قداسته. ترى فيه برهاناً علىاستباحة معلنة لا تزول، حتى وإن كانت غير مرئية للآخرين.

وذات يوم، دخل "كريم" حياتها. لم يكن كريم مجرد زميل عمل جديد، بل كان كسراً في جدارها العازل. كان متخصصاً في الكيمياء، قادماً من سوريا، بعينين دافئتين وابتسامة صادقة. كان يرى فيها شيئاً أعمق من الواجهة اللامعة، كان يرى الحزن الخفي في عينيها، التوتر الدائم في جسدها.

بدأ الأمر بتبادل الأحاديث المهنية، ثم تحول إلى نقاشات أطول حول الفن، الحياة، الفلسفة. كان كريم يمتلك حساسية فريدة، قدرة على الاستماع دون حكم، على الفهم دون الحاجة إلى الكلمات. تجد ليلى نفسها تتحدث معه عن أشياء لم تتحدث عنها مع أي شخص آخر، لا عن الماضي، بل عن مشاعرها العامة، عن شعورها

منشورات «الفيـاء» «AlFyaa»

بالغربة، بالوحدة، بالخوف من المستقبل.

"أشعر أحياناً أنني أعيش في عالم لا ينتمي إليّ، وأنني لست جزءاً من أي مكان." قالت له ذات مساء، وهما يحتسيان القهوة في مقهى في هاكشاماركت.

نظر إليها كريم بعمق. "الغربة ليست دائماً مكاناً، يا ليلى. قد تكون شعوراً يسكن الروح، حتى في وسط الحشود."

شعرت ليلى بلسعة في قلبها. فهمها. فهم شيئاً لم يفهمه أحد من قبل.

مع مرور الأسابيع، بدأ كريم يتسلل إلى عالمها المحصن. كان يدعوها للعشاء، يخططان لزيارة المعارض الفنية، للمشي على ضفاف شبري. تتردد في البداية، ثم تستسلم لإلحاحه اللطيف. تشعر بجاذبية غريبة تجاهه، جاذبية ممزوجة بالخوف. كان جسدها يرتجف كلما اقترب منها، كلما لمست يده أي جزء من جسدها غير كفها عرضاً. تخشى أن يرى ندوبها الخفية، أن يكتشف الوحش الذي يسكن داخلها.

ذات ليلة، بعد عشاء في مطعم هادئ، أوصلها كريم إلى باب شقتها. كان الجو بارداً، والأضواء الخافتة تلون الشارع ببريق ذهبي. وقف أمامها، عينيه تلمعان بدفء.

"ليلى، أريد أن أكون صريحاً معكِ." قال بصوته الهادئ. "أنا معجب بكِ جداً. أرى فيكِ عمقاً وجمالاً لا يصدق، وأرغب في الاقتراب منكِ أكثر."

تجمدت ليلى. الكلمات كانت جميلة، لكنها بدت كخناجر تخترق درعها. شعرت بالذعر يتسلل إليها.

منشورات «الفيلياء» «AlYaa»

"كريم... أنا..." تلعثمت الكلمات على شفتيها.

"لا تقولي شيئاً الآن." قاطعها بلطف. "فقط فكري في الأمر."

ثم، وبشكل غير متوقع، مد يده وربت على خدها بلطف بالغ. مجرد لمسة عابرة، لكنها بدت كصدمة كهربائية لنور. شعرت بلسعة حارقة على جلدها، ثم موجة من الغثيان تجتاحها. تراجعت خطوة إلى الوراء، وعيناها تتسعان من الخوف.

"أنا آسف." قال كريم، وقد لاحظ رد فعلها. "لم أقصد إزعاجكِ."

"لا، لا بأس." تمتمت ليلى، وهي تحاول أن تجمع شتات نفسها. "فقط... أنا متعبة."

ابتسم ابتسامة حزينة. "أفهم. ليلة سعيدة يا ليلى."

أغلقت الباب خلفها، وانهارت على الأرض، تتنفس بصعوبة. يداها ترتجفان، وقلبها يخفق بعنف. اللمسة البريئة أعادتها إلى تلك الليلة، إلى الأيدي الخشنة، إلى الاشمئزاز. شعرت بدموع حارة تنساب على خديها، دموع لم تذرفها منذ سنوات.

في الأيام التالية، حاولت ليلى تجنب كريم. كانت تختبئ خلف عملها، ترفض مكالماته، وتتجنب الأماكن التي قد تلتقي به فيها. لكن كريم لم يستسلم. كان يرسل لها رسائل لطيفة، يترك لها الزهور على باب بيتها، ويحاول التحدث معها بلطف وصبر. كان يرى جرحها، ويرغب في شفائه، دون أن يعرف عمقه.

تشعر ليلى بالذنب، بالامتنان، وبالخوف. ترغب في أن تفتح قلبها له، أن تسمح لنفسها بالشعور مرة أخرى، لكن الرعب كان أقوى. ترى في كل رجل، حتى في كريم اللطيف، وحشاً كامناً، ينتظر اللحظة المناسبة ليتحول إلى كابوسها القديم. ترى في كل لمسة، حتى

منشورات «الفيا» «AlYaa»

في لمسة الحنان، تهديداً، استباحة.

مرت أسابيع، والتوتر بينهما يتصاعد. ليلى تذبل، تفقد وزنها، وتصبح أكثر عزلة. تزداد الكوابيس وحشية، تقتحم يقظتها، وتجعلها ترى الأشباح في كل زاوية. تشعر أنها على وشك الانهيار.

ذات مساء، تلقت ليلى مكالمة من والدتها من بغداد. تحدثت والدتها بصوت خافت، مخنوق بالدموع. "ليلى، ذكرى أنس بعد يومين. عشر سنوات يا ابنتي. عشر سنوات على رحيله."

توقفت أنفاس ليلى. عشر سنوات. لم تكن قد حسبت الأيام، لكنها كانت محفورة في روحها. ذكرى أنس، وذكرى تلك الليلة. كان هذا هو المحفز الذي كسر آخر حواجزها.

في اليوم التالي، لم تستطع ليلى الذهاب إلى العمل. بقيت في شقتها، تتخبط بين الكوابيس واليقظة المليئة بالهلوسات. ترى وجوه الرجال الملثمين في كل زاوية، تسمع صراخ والدتها، ترى جسد أبيها الذي يتلوى على الأرض. تشعر بدم أنس يلطخ يديها. تشعر بالجنون يتسلل إليها ببطء.

رن جرس الباب. تجاهلته ليلى. رن مرة أخرى، ثم مرة ثالثة. ثم سمعت صوت كريم ينادي اسمها. "ليلى! هل أنتِ بخير؟ قلقت عليكِ."

لم تجب. ترتجف في زاوية الغرفة، تحتضن نفسها، عاجزة عن الحركة.

"ليلى، سأكسر الباب إذا لم تفتحي!" صوته بدا قلقاً وحازماً.

شعرت ليلى بخوف جديد. لا تريد أن يراها هكذا، ضعيفة، مهزومة، عارية من كل أقنعتها. لكنها لم تستطع المقاومة.

منشورات «الفياء» «AlYaa»

بعد لحظات، سمعت صوتاً راجياً "ليلى، سأكسر الباب!". استمرت كريم في مجيئه عدة أيام أخرى. "ليلى، أنا أشعر الخيبة والخذلان. أنت تهينيني!" تحاملت على نفسها وفتحت الباب. تراجعت.دخل كريم، وجهه شاحب، وعيناه مليئتان بالقلق. رآها جسداً منهكاً، شعرها مبعثر، عيناها حمراوان ومنتفختان، جسدها يرتجف بشكل لا إرادي.

"ليلى! يا إلهي، ماذا حدث لكِ؟" تقدم نحوها، وجثا على ركبتيه.

تراجعت ليلى، تصرخ بصوت خافت. "لا تقترب! لا تلمسني!"

توقف كريم، رفع يديه ببطء، محاولاً تهدئتها. "حسناً، حسناً. لن ألمسكِ. فقط أخبريني ما الخطب."

بدأت ليلى تتنفس بصعوبة، الكلمات تتسارع، تخرج منها كشلال من الألم. "عشر سنوات... عشر سنوات على تلك الليلة... رأيتهم... رأيتهم مرة أخرى... أنس... دمه... أنا... أنا دُنِّستْ... أنا قذرة..."

تتحدث بكلمات متقطعة، غير مفهومة تماماً لكريم، لكنه فهم الألم، فهم الرعب في عينيها.

"ماذا حدث يا ليلى؟" سأل بصوت هادئ، مليء بالتعاطف.

نظرت إليه ليلى، عيناها مليئتان باليأس. "دمروني يا كريم. دمروني في تلك الليلة. "

ثم، وبشكل غير متوقع، بدأت تروي له القصة. لم تكن تحكيها كحكاية، بل تعيشها من جديد. صوتها كان يرتفع وينخفض، عيناها تحدقان في الفراغ، يداها تمسكان بذراعيها بقوة، كأنها تحاول أن تحمي نفسها من أشباح الماضي.

روَت له عن أنس، عن حبهما، عن أحلامهما البسيطة. روَت عن

منشورات «الفـيـاء» «AlYaa»

اقتحام المنزل، عن صرخات والدتها، عن ضربات البندقية لوالدها. ثم، وبصوت خافت، مليء بالعار والألم، روت له عن الرجال الثلاثة. عن الأيدي التي مزقتها، عن الأجساد التي دنست جسدها، عن الروح التي انشطرت.

"قتلوني يا كريم." همست، ودموعها تجف على خديها. "لم يقتلوني بالرصاص، بل قتلوا روحي. تركوني جسداً فارغاً، أتحرك في هذا العالم، لكنني ميتة من الداخل. أنا لا أستطيع أن أُلمس. لا أستطيع أن أُحب. لا أستطيع أن أثق. كل رجل... كل لمسة... تعيدني إلى تلك الليلة. أشعر بالاشمئزاز من جسدي، من وجودي. أنا أعيش وصمة عار، يا كريم. وصمة عار لا تزول."

كان كريم يستمع في صمت مطبق. وجهه تحول إلى قناع من الألم. عيناه تلمعان بالدموع، لكنه لم يقل كلمة واحدة، فقط استمع، واستوعب، وشعر.

عندما انتهت، ساد الصمت. صمت ثقيل، مليء بالألم. كانت ليلى تتوقع منه الاشمئزاز، الرفض، الهرب. تتوقع منه أن يراها كما ترى هي نفسها: مُدنسة، ملوثة، غير جديرة بالحب.

لكن كريم لم يهرب.

تقدم نحوها ببطء، وجثا أمامها. مد يده ببطء شديد، وكأنه يخشى أن يكسرها. لم يلمسها، بل وضع يده على الأرض بجانبها.

"ليلى." قال بصوت خافت، مبحوح. "أنا آسف جداً. آسف لكل ما مررتِ به."

نظرت إليه ليلى، عيناها مليئتان بالشك والترقب.

"أنتِ لستِ وصمة عار، يا ليلى." تابع كريم، وعيناه تحدقان في

منشورات «الفياء» AlFyaa«

عينيها. "أنت ضحية. أنتِ ناجية. أنتِ امرأة قوية بشكل لا يصدق، لأنكِ تحملتِ كل هذا واستمررتِ في العيش. جسدكِ لم يُدنس، بل تعرض للاعتداء. وهناك فرق كبير. جسدكِ هو ملككِ، وروحكِ نقية، بغض النظر عما فعله هؤلاء الوحوش بكِ."

كانت كلماته قطرات ماء باردة على جرح مفتوح. حقيقة قاسية، لكنها صادقة.

"كيف يمكنني أن أعيش مع هذا، يا كريم؟" سألته بصوت متهدج. "كيف يمكنني أن أنسى؟"

"لا يمكنكِ أن تنسي." قال كريم بصدق. "لكن يمكنكِ أن تتعلمي كيف تتعايشين معه. يمكنكِ أن تجدي السلام في قلبكِ، حتى مع وجود هذا الظل. أنتِ تستحقين ذلك يا ليلى. تستحقين الحب، تستحقين الحياة."

ثم، وببطء شديد، مد يده ولمس يدها الباردة. هذه المرة، لم تتراجع ليلى. شعرت بلسعة كهربائية، لكنها لم تكن لسعة رعب، بل لسعة حياة، لسعة دفء.

"أنا هنا من أجلكِ، يا ليلى." قال كريم. "لن أترككِ وحدكِ في هذا."

في الأيام التالية، لم يكن الشفاء معجزة فورية. لا تزال ليلى تعاني من الكوابيس، من نوبات الهلع، من الشعور الدائم بالغربة. لكن شيئاً ما قد تغير. انكسر الجدار. خرج السر إلى النور، ووجدت أذناً صاغية، وقلباً متفهماً.

بدأت ليلى في زيارة معالجة نفسية متخصصة في صدمات الحروب. تتحدث، تبكي، تصرخ، وتواجه شياطينها الداخلية. العملية

منشورات «الفـياء» «AlYaa»

مؤلمة، بطيئة، ومليئة بالانتكاسات، لكنها ضرورية. تتعلم كيف تعيد بناء ثقتها بنفسها، كيف تعيد تعريف جسدها، كيف تعيد المطالبة بآدميتها.

كان كريم بجانبها في كل خطوة. لم يضغط عليها أبداً، بل كان صبوراً، متفهماً، وداعماً. كان يمسك يدها في الليالي التي لا تستطيع فيها النوم، ويقرأ لها بصوت هادئ، ويصنع لها الشاي. لم يطلب منها شيئاً، فقط كان موجوداً. كان حبه لها حباً نقياً، لا يطلب مقابلاً، حباً يرى ما وراء الجروح، يرى الروح النقية التي لا تزال تتألق تحت الرماد.

مع مرور الأشهر، بدأت ليلى ترى بصيصاً من الأمل. لم تختفِ الظلال تماماً، لكنها أصبحت أقل كثافة. لم يختفِ الخوف، لكنها تعلمت كيف تتعايش معه. لم يختفِ شعور الغربة، لكنها بدأت تجد موطناً جديداً داخل نفسها، موطناً مبنياً على التعافي.

ذات يوم، وهي تمشي مع كريم على طول شارع 17 يونيو بين بوابة براندنبورغ نحو عمود النصر، تحت أشعة الشمس البرلينية الدافئة، توقفت ونظرت إليه.

"شكراً لك، يا كريم." قالت بصوت خافت، لكنه مليء بالامتنان. "أنقذتني."

ابتسم كريم، وأمسك بيدها. "أنتِ من أنقذتِ نفسكِ، يا ليلى. أنا فقط كنتُ بجانبكِ."

لم تكن قد شفيت تماماً. ربما لن تشفى أبداً بشكل كامل. فبعض الجروح تترك ندوباً عميقة لا تزول. لكنها لم تعد وحيدة. لم تعد تحمل العبء بمفردها. وجدت شريكاً في رحلتها، شخصاً يرى ظلها، لكنه لا يخاف منه. شخصاً يرى نورها، ويساعدها على أن

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

تتألق من جديد.

كانت برلين لا تزال قطعة حلوى مرّة، لكنها أصبحت أقل مرارة. أصبحت ليلى ترى فيها أحياناً جمالاً حقيقياً، لا مجرد واجهة. تعلمت أن الحياة، حتى بعد أن تدمرها ليلة واحدة، يمكن أن تُبنى من جديد، قطعة قطعة، ببطء وصبر، ومع الكثير من الحب. الظل ظل موجوداً، لكنها تعلمت كيف تمشي معه، تحت ضوء الشمس، نحو مستقبل لم يعد يحاصره الخوف تماماً، بل يحمل وعداً، وإن كان هشاً، بالسلام.

برلين - بوخ - 2019

منشورات «الفـياء AlfYaa»

بغداد . لالش . الرقة

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء AlifYaa»

تتردد أصداء التراتيل الخالدة في وديان لالش، تلامس أرواح المؤمنين، وتتعانق مع نسمات الصباح الباردة، حاملة عبق البخور وروائح الطيب. ليلى، ابنة الخامسة عشرة، تغمض عينيها، تسمح للضياء الذهبي الذي يتسلل من فتحات معبد الشيخ عدي بن مسافر أن يغمر وجهها. يتدفق شعور بالسلام، بالانتماء، إلى أعماق كيانها. هنا، حيث تتجذر روح عائلتها الإيزيدية، تشعر ليلى بأنها جزء من نسيج مقدس، جزء من تاريخ.

تتفتح عيناها لتلتقي بتفاصيل المكان. الجدران الحجرية العتيقة، التي شهدت أجيالاً وأجيالاً، تحمل بصمات الزمن والصلاة. المصابيح الزيتية المضيئة تضفي على المكان هالة من الدفء والخشوع، تتراقص ألسنة لهبها الصغيرة على الجدران، ترسم ظلالاً متحركة تشبه أرواح الأسلاف. إنها ليست مجرد حجارة؛ إنها قصص، صلوات، وعود، وآمال تُردد في كل زاوية، في كل نقوش حجرية.

تتذكر ليلى حديث والدها قبل بدء الرحلة من بغداد. "يا ليلى، لالش ليست مجرد وادي ومرقد ومعبد مقدس، إنها قلب الإيزيديين. هناك، ستشعرين بروح طاووس ملك، وببركة الشيخ عدي، وستُجددين عهدك مع أرض الأجداد." تحمل كلمات الأب ثقلاً خاصاً، فهي المرة الأولى التي تزور فيها ليلى، الوافدة من صخب بغداد، هذا المكان المقدس بكل تفاصيله الدقيقة.

يقف والدها، خضر، بجانبها، يده الحانية تستقر على كتفها. وجهه

منشورات «الفيلاء» «AlfYaa»

مجعد، يحمل سمات الفلاح الإيزيدي الأصيل، وعينيه تلمعان ببريق إيمان راسخ لم تؤثر عليها ثلاثون عاما من العيش والعمل في بغداد. يبتسم لها، ابتسامة تُطمئن روحها. الأم، مريم، منهمكة في إعداد بعض القرابين، صوت ضحكاتها الخافتة يمتزج مع همس الزائرين. العمة، جدتها، وابنة عمتها الكبرى، جميعهن هنا. العائلة بأكملها، متوحدة في هذا الحدث المقدس.

سيقام احتفال عيد "جماعية" بعد ثلاثة أشهر من الآن، يُعَلّمها والدها " أحد الأعياد الرئيسية للإيزيديين، ستتراقص الألوان الزاهية لملابس النساء الإيزيديات التقليدية مع خيوط الشمس. ستُسمع أصوات الدفوف، إيقاعها ينساب في الهواء كشريان حياة. حينها يشارك الرجال في تناغم بين الروح والطبيعة." ليلى تشعر بنبض الأرض تحت قدميها، وبإيقاع الحياة التي ستنبع من هذا المكان، بعد أسابيع قادمة.

تملأ روحها حكايا ابنة عمتها نور وأمها وأبيها عن تفاصيل أيام العيد؛ صعود اليزيديين إلى الجبل المحيط بمرقد الشيخ عُدي، والعودة من الجبل، وذبح الثور وتحضير الأكل لإطعام المحتفلين بهذا اليوم، ثم احتفالية اليوم الثاني بنصب تخت بري شباك، ويوم سماط چلميره، ثم التعميد في عين البيضا، ويليه يوم الاغتسال بماء الزمزم. تحلم ليلى بأنها ستعيش كل هذه الأيام وكل هذه الاحتفالات تشارك ليلى في طقس الاغتسال بماء زمزم، ستتناثر قطرات الماء البارد على وجهها، ستشعر بنقائها، بتجددها.

تسير جنب أبيها وهي تراقب النساء يربطن قصاصات القماش الملونة على الأشجار المقدسة، كل قطعة قماش تحمل أمنية، صلاة، رجاء. تترك ليلى يد لتربط قصاصتها، تتمنى أن تعيش حياة سعيدة، وأن تظل عائلتها في أمان، وأن يعودوا إلى بغداد سالمين، بعد

منشورات «الفياء AlfYaa»

العيش مع أفراد عائلتها في منتطقة سنجار وحضورها العيد. أمنيات بسيطة، بريئة، تليق بفتاة في عمرها.

في إحدى الزوايا، ترى "فقيراً" يروي قصصاً عن طاووس ملك، وعن تاريخ الإيزيديين، عن مرات من المحنة التي عاشوها وصمودهم. يتجمع حوله الأطفال والنساء والرجال، عيونهم تتبع كل حركة من حركات يديه، آذانهم تصغي لكل كلمة. ليلى تتأمل، تدرك أن هذا التراث، هذه القصص، هي ما يربطهم ببعضهم البعض، هي ما يمنحهم هويتهم الفريدة.

يُعدّ العشاء الجماعي في باحات المعبد، موائد تُفرد عليها أشهى الأطباق التقليدية: البرغل باللحم، الدجاج المشوي، الخبز الطازج، اللبن الرائب. تتبادل العائلات الحديث والضحكات، تتآلف الأرواح في جو من المحبة والوئام. ليلى تتحدث مع ابنة عمتها، نور، عن أحلامهن المستقبلية. نور تتمنى أن تصبح معلمة، ليلى تحلم بأن تدرس الأدب، أن تكتب قصصاً تُلامس القلوب. أحلام يافعات، مليئة بالبراءة والأمل.

في الليل، عندما تهدأ الأصوات وتخفت الأضواء، تتسلل ليلى إلى شرفة صغيرة في أبنية القرية، تطل على الوادي. يغمرها جمال السماء المرصعة بالنجوم. تشعر بالكون كله يهمس لها أسراره. تُفكر في ماضي شعبها، في الاضطهادات التي تعرض لها، وفي صمودهم الأبدي. "هل سيبقى هذا السلام دائماً؟" تسأل نفسها، سؤالاً عابراً، يتبدد سريعاً مع نسمة هواء باردة تحمل رائحة الزعتر البري. إنها لحظة نقاء، لحظة لا تدرك ليلى كم ستظل محفورة في ذاكرتها كآخر وميض من الفرح الخالص.

تنام ليلى تلك الليلة في قربة لالش، حالمة بألوان الزهور البرية،

منشورات «الفـياء AlfYaa»

وبضحكات الأطفال، وبأصوات الدفوف في أذنيها حتى بعد أن تُغادر المكان. إنها ليلة تحمل كل معاني الحياة التي لم تعشها بعد، وكل الآمال التي لم تُحطم بعد.

غدا ستسافر العائلة إلى عين سفني، ومنها إلى قرية أجدادها "حردان".

* * *

الشمس تُشرق في حردان، في بداية شهر آب لكنها لا تحمل معها الهدوء المعتاد. صرخات تُقطع هدوء الصباح. أصوات غريبة، قاسية، تهز الأرض. ليلى تستيقظ على فزع، قلبها يدق بعنف في صدرها. والدها يركض إلى الغرفة، وجهه شاحب، عيناه تصرخان بالرعب. "داعش! وصلوا!" كلمتان كافيتان لتدمر عالمها.

لحظات معدودة تتلاشى فيها كل ألوان الأمس. صوت الرصاص يُمزق الهواء. صراخ النساء، بكاء الأطفال، صرخات الرجال وهم يحاولون الدفاع عن قراهم، عن عائلاتهم. ليلى تتجمد في مكانها، عقلها لا يستوعب ما يحدث. "هذا ليس حقيقياً، هذا كابوس..." تُهمس لنفسها، لكن رائحة الدخان المرير، وصوت الانفجارات القريبة، يصرخان بالحقيقة المُرعبة.

يجرّها والدها ووالدتها نحو مخرج جانبي، لكن الأوان قد فات. تُفتح الأبواب بعنف، ووجوه مُلثمة، تحمل نظرات حجرية، تقتحم المكان. أسلحة سوداء تُشير إليهم. لا وقت للصراخ، لا وقت للمقاومة. رجال العائلة يُسحبون بعنف، يُرمون على الأرض. الأمهات يصرخن، يحاولن الاحتماء بأطفالهن، لكن الأيادي الغليظة لا تعرف الرحمة.

منشورات «الفياء» «AlYaa»

ليلى تُشاهد والدها يُسحب، ثم يُسحب أخوها، ثم والدتها. يديها ترتعدان، عيناها لا تستطيعان أن تُغمضا. تُسمع أوامر صارمة، بكلمات حادة وقاسية. تُرى الأسلحة تُوجه نحو الرجال. الطلقات. الأصوات المدوية. جسد والدها يسقط أرضاً. ثم جسد عمها، ثم جسد قريب آخر. الدماء تُلوّن أرض حردان، تُحوّلها إلى بركة حمراء تُناقض نقاء صباحات الأمس. تصرخ ليلى بصوت عال، صرخة تُشقّ صدرها، صرخة لا تجد لها صدى في هذه الفوضى العارمة.

تُدفع ليلى بقوة نحو مجموعة من النساء والأطفال. وجوههم مرعوبة، عيونهم فارغة من الحياة. دموع تتدفق بلا توقف. ترى والدتها تتقدم نحوها، لكن يداً قاسية تُبعدها. "لا تنظري إليّ يا ليلى! لا تنظري!" تُصرخ الأم، عيناها مليئتان بالألم، تريد أن تُخفي عن ابنتها ما تعيشه من مرارة.

تُقاد ليلى مع مئات النساء عبر الوديان. الشمس تُحرق رؤوسهم، العطش يكاد يُفقدهم الوعي. أصوات البكاء تتلاشى تدريجياً، ليحل محلها صمت ثقيل، صمت الضحايا. ليلى تمشي، لا تعرف إلى أين، لا تعرف لماذا. عقلها فارغ، وقلبها يتحول إلى قطعة ثلج. جميع أحلامها تختفي خلف غبار المعاناة.

الرحلة طويلة، مُنهكة. تُلقى النساء في حافلات مُكتظة، يُنقلن من مكان لمكان، لا ماء، لا طعام، لا هواء. كل نَفَسٍ ثقيل، محمل برائحة الخوف واليأس. ليلى تُفكر في والدها، في ابتسامته، في يديه الدافئتين. "هل رحل حقاً؟ هل هذه نهاية كل شيء؟" السؤال يعصف بذهنها، لكنها لا تجد له جواباً.

في النهاية تصل الحافلات إلى مكان لا تعرفه. سوق. ترى الرجال الملثمين يتجمعون حولهم، يتبادلون الحديث بنظرات خبيثة.

منشورات «الفياء» «AlfYaa»

النساء تُعرض كسلع في سوق النخاسة. يُدفعن، يُسحبن، تُفحص أجسادهن. ليلى تُشاهد بعينيها الواسعتين كل ما يحدث. ترى النساء الأكبر سناً يُفصلن عن الشابات. الأطفال يُسحبون من أمهاتهم. إنها فوضى، لكنها فوضى منظمة، فوضى لها هدف واحد: التدمير.

تُشعر ليلى بيد خشنة تُمسك بذراعها. تُسحب بعيداً عن والدتها. تُصرخ الأم، "ليلى! يا ابنتي!" لكن صرختها تُطمس في ضوضاء السوق. ليلى تُقاوم، تُحاول أن تُفلت، لكن القوة أكبر منها. عيون الرجل الذي يُمسك بها باردة، بلا رحمة. يُنظر إليها وكأنها مجرد قطعة من المتاع.

تُوضع ليلى مع مجموعة من الفتيات الأخريات. أعمارهن تتراوح بين العشر سنوات والخمس عشرة. وجوههن شاحبة، عيونهن مُطفأة. يقفن في دائرة، تُعرض كل واحدة منهن على حدة. الرجال يُشيرون، يتحدثون، يضحكون. تُشعر ليلى بالخزي، بالعار يغمر جسدها كله. "ماذا يحدث لي؟" تُسأل نفسها، لكن لا إجابة، فقط الصمت المطبق، صمت عالمها الذي انهار.

تُباع ليلى في ذلك اليوم. تُباع كسلعة رخيصة، تُدفع قيمتها ببعض أوراق النقد. يُسحبها رجل ذو لحية كثيفة، وجهه مُغطى بوشاح أسود. بعدها تُباع مراراً وتكراراً. كل عملية بيع تُزيل قطعة من روحها، تُطفئ شمعة من الأمل. تُصبح مجرد جسد، تُفقد إنسانيتها شيئاً فشيئاً. تُستباح طفولتها، تُغتصب براءتها كل مرة. لا صرخة تُسمع، لا يد تُمدّ للمساعدة. إنها وحدها، في عالم من الظلام المطلق.

القسم أعلاه يعاد صياغته ليكون أدبيا وليس تقريريا

تتلاشى ذكريات لالش المقدسة، تصبح مجرد ومضات بعيدة،

منشورات «الفياء» AlYaa«

أحلاماً لزمن آخر. ليلى ليست تلك الفتاة التي تسير في حقول لالش، أو تعيش في بغداد، أو التي تحلم بدراسة الأدب. إنها الآن مجرد "سبية"، مجرد جسد، مجرد رقم في سجلات الظالمين.

* * *

تتذكر الأيام الأولى. الصدمة، الإنكار. جسدها يرتجف خوفاً من كل لمسة، من كل نظرة. الرجل الذي اشتراها آخر مرة، أبو قتادة بعد سنتين من السبي والبيع في محطتها الأخيرة في الرقة، رجل ذو وجه قاسٍ وعينين فارغتين، يُعاملها كقطعة أثاث، كأداة للمتعة. يُجبرها على خدمة زوجته الأخرى، التي تُعاملها بازدراء. تُجبرها على الطهي، التنظيف، وعلى إشباع رغباته الدنيئة.

الحياة في بيت مقاتل داعش هي سلسلة لا تنتهي من الألم والذل. كل صباح يبدأ برائحة الخوف، وينتهي بمرارة اليأس. ليلى تتجول في هذا البيت، لكنها لا ترى فيه إلا سجناً. الغرف الفسيحة، الأثاث الفاخر، كل ذلك لا يُخفف من قسوة الواقع. إنها سجينة، تُملك، تُستخدم.

ليلى تُصبح لعبة جنسية. تُغتصب كل ليلة، ويُنتزع منها كل جزء من إنسانيتها. البكاء لا يُجدي نفعاً، الصراخ لا يُغير شيئاً. تُحاول أن تُغلق عينيها، أن تُغادر جسدها، أن تتخيل نفسها في مكان آخر. تتخيل نفسها في بغداد، مع صديقاتها، تضحك، تدرس، تلعب. لكن الواقع أقسى من أي خيال.

يستيقظ جسدها المنهك صباحاً، تُجبر على الاستمرار. لا خيار لها. "ماذا حدث لطفولتي؟" تَسأل نفسها في كل مرة تُغتصب فيها. البراءة التي تُزيّن وجهها، تُسرق منها بقسوة. الأمان الذي تشعر به

منشورات «ألفباء» «AlIYaa»

في حضن والدتها، يُصبح ذكرى بعيدة.

مرت أشهر طويلة، كل يوم يُشبه سابقه. الألم اليومي لا ينتهي، الذلة والمهانة تُصبحان جزءاً من كيانها. تُحاول أن تُقاوم، لكن جسدها منهك، وروحها مُحطمة. تُلاحظ تغيراً في جسدها. الغثيان الصباحي، التعب المستمر. تُدرك الحقيقة المُرة: إنها حامل.

الصدمة تُشلّها. "كيف؟ كيف يمكن لهذا أن يحدث؟" تُسأل نفسها. طفل. طفل من جلّادها. طفل ينمو داخلها، يحمل بذور العذاب. تشعر بالاشمئزاز، بالغضب، بالحزن الذي لا يوصف. هذا الجنين ليس لها، ليس جزءاً منها. إنه جزء من الظلام الذي ابتلع حياتها.

تحاول أن تُخفي حملها قدر الإمكان، لكن جسدها يفضحها. زوجة أبي قتادة تُلاحظ التغيرات، وتُبلغ زوجها. يُواجهها أبو قتادة بابتسامة مُنتصرة. "أصبحتِ أماً لطفل منّا. هذا قدرك الآن." كلماته تُحطمها أكثر.

تُصبح ليلى مُراقبة أكثر. تُحرم من أي بصيص أمل. الجنين ينمو، ويزداد ثقله داخلها، كأنه يجرّها نحو الهاوية. تشعر أن هذا الطفل هو نهاية كل آمالها في العودة، في النقاء، في أن تُصبح هي نفسها مرة أخرى.

في لحظات الهدوء النادرة، عندما تكون وحيدة، تُغمض ليلى عينيها. تُحاول أن تستدعي صوراً من الماضي. بغداد. نهر دجلة. أصدقائها في المدرسة. الكتب التي تُحب قراءتها. ضحكات عائلتها. كل هذه الذكريات تُصبح سلاحها الوحيد ضد الظلام.

"هل سأعود يوماً؟ هل سأرى أمي مرة أخرى؟" هذه الأسئلة تُصبح ترتيلة يومية في أعماق روحها. الحنين إلى بغداد وعائلتها

منشورات «الفيـاء» «AlFyaa»

وأصدقائها يُصبح قوة دافعة، لكنه أيضاً سيف ذو حدين، يُزيد من ألمها. التوق إلى الحرية يومي لا ينتهي. كل شروق شمس جديد هو يوم آخر من الأسر، لكنه أيضاً يوم آخر من الأمل الكاذب.

تُصبح الأحلام ملاذها الوحيد. تحلم بالهروب، بالتحرر، بالركض في حقول خضراء بعيداً عن هذا الجحيم. تحلم بيد والدتها تُلامس وجهها، بصوت والدها يُناديها. تُغمض عينيها لترى طاووس ملك، رمز السلام والخلود في عقيدتها، يُحلّق في السماء، يأخذها بعيداً.

لكن الخوف يأتي يومياً ولا ينتهي. الخوف من المستقبل المجهول، الخوف من أن تُنسى، الخوف من أن تُصبح هذا الجسد المهان، هذه الروح المكسورة. الجنين الذي كونته وخلقته الكراهية، والذي سيولد في عالم لا يعرف الرحمة.

تُدرك ليلى أن هويتها تتلاشى. لم تعد ليلى الفتاة الإيزيدية من بغداد التي تحلم بالأدب. إنها الآن "ليلى"، الأسيرة، الأم المستقبلية لطفل لم تختاره. تفكر في معنى الحياة، في العدالة الإلهية، في معنى الصمود عندما لا يبقى شيء للتمسك به سوى خيط رفيع من الأمل المُنتزع.

* * *

تتسرب أنباء عن المعارك الدائرة خارج الرقة، المدينة التي تُصبح سجناً أكبر. تُسمع أصوات القصف البعيد، ثم تقترب شيئاً فشيئاً. تُبشّر الأنباء بتحرير قريب، لكنها تُثير أيضاً رعباً جديداً. "ماذا سيحدث لنا؟" تتساءل النساء الأسيرات في البيت.

ليلى تُلاحظ التوتر المتزايد في البيت. أبو قتادة يغادر ويعود،

منشورات «الفياء» «AlYaa»

وجهه عبوس. زوجته تُصبح أكثر قسوة، ليلى تُفكر في عبء الجنين الذي ينمو داخلها. سبعة أشهر مرت، وحملها يُصبح واضحاً. كل نبضة من نبضات قلبه الصغير تُذكّرها بحقيقة واقعها.

ليلى تُراقب السماء من نافذة صغيرة مُغطاة بالشبك. تُرى الطائرات المقاتلة تُحلق، تُلقي حممها على المدينة. صوت الانفجارات يُصبح جزءاً من روتينها اليومي. يرتجف الجنين داخلها مع كل انفجار، كأنه يشعر بالخطر المُحدق.

تُصبح أحلام ليلى أكثر وضوحاً. تحلم بأنها تُركض في شوارع بغداد، الرياح تُلامس شعرها، والشمس تُدفئ وجهها. تحلم بأنها تحتضن والدتها، تُسمعها صوتها المُنهك، تُروي لها كل ما حدث. تحلم بأنها حرة، مُتحررة من هذا الجسد المأسور، من هذه الروح المثقلة.

ليلة باردة. أصوات القصف تُصبح أقرب ما تكون. تهتز جدران البيت. تتساقط أجزاء من السقف. أبو قتادة يهرب مع عائلته، تاركاً بعض الأسيرات وراءه. يُغلق الباب عليهن، مُتجاهلاً صرخاتهن.

النساء الأسيرات يُتركن في البيت المتهالك. الخوف يُخنق الجميع. "هل سنُقتل جميعاً؟" تُهمس إحداهن. ليلى تُفكر في جنينها. "هل سأُعطيه الفرصة ليرى النور؟ هل سيولد في عالم كهذا؟"

تبدأ ليلى في الشعور بتقلصات خفيفة في بطنها. إنها بداية المخاض. "لا! ليس الآن! ليس هنا!" تُصرخ روحها. كيف يمكنها أن تُعطي الحياة في وسط هذا الدمار؟

تُحاول النساء الأخريات مساعدتها، لكن لا خبرة لديهن، ولا

منشورات «الفياء» «AlYaa»

أدوات. الخوف يُسيطر على الجميع. ليلى تتألم، ليس فقط جسدياً، بل نفسياً أيضاً. هذا الطفل، الذي يُمثل لعنة ماضيها، الآن يُطلب منها أن تُرحب به في هذا الحاضر المُرعب.

السماء تُمطر ناراً. الانفجارات تُصبح متتالية، لا تتوقف. ليلى تتلوى من الألم. تُغمض عينيها، تُحاول أن تستدعي صور حياتها في بغداد، صور لالش، صور النقاء والسلام، لتُخفف من ألمها. تُحاول أن تُفكر في طاووس ملك، في الحماية الإلهية، في أن هذه ليست النهاية.

بين كل انفجار وآخر، تُسمع ليلى صوتاً خافتاً، صوتاً يشبه بكاء طفل. هل هو جنينها؟ هل تُسمعه؟ أم أنه مجرد وهم من أثر الألم؟

* * *

انفجار هائل يهز الأرض. البيت كله يرتجف بعنف. تتصدع الجدران، ينهار السقف. الغبار والدخان يُعميان الرؤية. تُسمع صرخات، ثم صمت مطبق.

ليلى تشعر بضربة قوية على رأسها. الظلام يبتلعها. لا ألم، لا خوف، فقط فراغ عميق. هل هذا هو الموت؟

في لحظة أخيرة، تُرى ليلى وميضاً خافتاً. تُرى نفسها في لالش، تركض في الحقول الخضراء، تُلاحق فراشة زرقاء. تُرى والدها يبتسم لها، ووالدتها تُناديها باسمها. تُرى نور تضحك بجانبها. تُرى الأضواء المتلألئة في معبد الشيخ عدي، وتُسمع الأناشيد الجماعية.

ثم يختفي كل شيء. الظلام يُطبق.

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

ليلى الإيزيدية، ذات السبعة عشر ربيعاً، التي حلمت بـالأدب والحياة، تُغادر هذا العالم. تُغادر مع جنينها، التي حملت به غصباً، الذي لم يُكتب له أن يرى النور. رحلت ليلى بصمت، تحت ركام مدينة الرقة السورية.

برلين - بوخ - 2021

منشورات «الفـيـاء AlfYaa»

ولادة ليلى

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»

على حافة فجر بغدادي جديد، تتشابك خيوط الزمن، محملة بوشوشات النخيل العتيقة، وبصمت حكايات محفورة في طين دجلة الخالد. كانت بغداد، كعادتها، تتنفس بصعوبة. أطلال الجراح ما زالت قائمة كشواهد صامتة على أزمنة مضت، لكن في أحشائها، في قلب مستشفياتها التي شهد ولادات لا تحصى على مر العقود، كان نبض حياة جديدة يدقّ بقوة غير متوقعة، كأن المدينة ترفض الاستسلام لقدرها الأبدي من الألم.

زينب، الشابة الثلاثينية، التي حملت في رحمها أكثر من مجرد جنين، بل حملت وعداً بغدٍ قد يكون مختلفاً، تتمدد على سرير الولادة، وعيناها تتسعان وتضيقان مع كل انقباضة. الألم كان حاداً، يخترق عظامها، لكن في عمق روحها، تشعر بشيء أعمق من الألم، شيء يشبه اليقين بأن هذه اللحظة ليست مجرد ولادة عادية. إنها استمرارية، نقطة في نهر الزمن لا يمكن أن تتوقف. تذكرت كلمات أمها العجوز، التي لطالما قالت: "بنت بغداد لا تموت، تتجدد كالنخلة بتالاتها." تتردد تلك الكلمات في أذنيها كتعويذة قديمة، تزينها ببريق أمل شحيح.

عبر النافذة المطلة على باحة في فجر رمادي، بدت الساعات وكأنها تمتد بلا نهاية، كجسم منهك يتنفس بصوت خافت. أضواء الشوارع الخافتة تضيء بقعاً متفرقة، تكشف عن ندوب لا تُمحى: بنايات متصدعة، أسلاك كهربائية معلقة كعروق واهنة، أو معكرونة متشابكة، وهواء محمّل بغبار التاريخ ورماد الحرائق القديمة.

منشورات «الفيحاء» AlFyaa

رغم كل شيء، كان هناك شيء ما في هذا الفجر البطيء، في اللون البنفسجي الذي بدأ يتسلل من خلف البيوت المتراصة، يوحي ببدء حكاية جديدة.

صرخة، ثم صرخة أخرى، اخترقت جدار الألم الذي حبس زينب. هذه الصرخات لم تكن صرخاتها وحدها، بل صرخات بغداد بأكملها، صرخات أمهات فقدن، وأخوات كافحن، وبنات وُلدن وعشن في قلب العاصفة. صرخة حياة، تهز جدران المستشفى، وترتجف معها روح المدينة.

"إنها فتاة!"

كلمة بسيطة، لكنها حملت وزن الكون بأكمله في تلك اللحظة. تفتحت عينا زينب على مصراعيهما، لتلتقي بهدوء مع الصغيرة التي وُضعت على صدرها. جسدٌ صغيرٌ، رقيق، أحمر اللون، يرتجف قليلاً، لكنه يتنفس. تتنفس بغداد مجدداً، في هذا الكائن الجديد.

"ليلى..." همست زينب، وهي تمرر أناملها المرتعشة على رأس الرضيعة. لم يكن الاسم محض اختيار، بل كان قدراً، إرثاً تناقلته الأجيال، همسة من الماضي البعيد، كأنها تفتح صفحة جديدة في سجل تاريخ بغداد الطويل، تحمل ذات الاسم، لكن هذه المرة، ربما، بروح مختلفة، أمل جديد.

وجه ليلى الصغيرة كان يحمل براءة لم تُدنّس بعد بقسوة العالم، لكن في عينيها البنيتين الغامقتين والواسعتين، اللتين لم تتضح معالمهما بعد، بدت وكأنها تستوعب قروناً من الحكايات والآلام والأمل. كأنها مستودع لجميع الليالي التي سبقتها، تحمل في جيناتها خريطة طريق لكل ليلات بغداد، لتنسج مصيراً خاصاً بها. هي "ليلى" الجديدة، التي ستتلقى أول نسمة من فجر بغداد الجريح، فجر

منشورات «الفياء» «AlFyaa»

يحمل في طياته وعداً هشاً بالضوء.

* * *

في غرفة الانتظار، جلست ليلى الجدة، وقد بدت كجذع نخلة عتيقة، جذورها ضاربة في أعماق تراب بغداد، وأغصانها تحمل حكمة قرون مضت. لم تكن مجرد امرأة عجوز تنتظر مولوداً جديداً، بل حارسة للذاكرة، خازنة للقصص، شاهدة على كل ما مرت به هذه المدينة من فرح وحزن. عيناها، رغم تجاعيد الزمن، تحمل بريقاً غامضاً، كأنها ترى ما لا يراه الآخرون.

ترفض الجلوس على الكرسي البلاستيكي البارد، مفضلةً مقعداً خشبياً قديماً التصق به عبق تاريخ المستشفى. تذكرت كيف جلست في المكان ذاته قبل عقود، تنتظر ولادة ابنتها، ثم تنتظر ولادة حفيدتها. تتكرر الولادات، كما تتكرر الفصول، لكن بغداد، يا له من قدر، تعاني دائماً.

"صوت سعف النخيل لا يتوقف أبداً يا بنيتي..." تتردد هذه الكلمات في ذهنها، تلك الكلمات التي قالتها لابنتها زينب قبل أن تدخل غرفة الولادة. "النخيل يحمل أصوات الأجيال، يحمل الحكايات التي لا تموت. كل ليلى تولد هي صدى لليلى قبلها، وهمسة لليلى التي ستأتي."

تتأمل ليلى الجدة الآن كفيها المتجعدين، خطوطهما تحكي قصصاً لا تُحصى: قصة فتاة يافعة ركضت في أزقة محلة الفضل، قصة عروس زفت على وقع أغاني البغدادية على طول شارع الشيخ عمر وعودة على طول شارع الكفاح، قصة أم هاجر ابنها البكر بعد ليالي الخوف السود، فقدت ابنها في حرب طائشة، قصة زوجة احتضنت

منشورات «الفياء» «AlYaa»

الفقد كرفيق دائم. كل ليلى في هذه المدينة جزءاً منها، وتراها في مرآة الذاكرة.

"هل ستكون هذه الليلى مختلفة؟" تساءلت في سرها، والنخيل في الخارج يوشوش، كأنه يجيبها بلغة لا يفهمها إلا من حمل ثقل التاريخ في روحه.

توقفت عن تتبع شريط الذكريات عندما خرجت الممرضة مبتسمة، ووجهها يحمل بشارة الفجر. "مبروك يا حجة، زينب أنجبت فتاة، كالقمر تماماً."

انتفض قلب ليلى الجدة. فتاة! ليلى أخرى. شعرت بقشعريرة تسري في جسدها، مزيجاً من الفرح والألم. تعرف أن كل ولادة هي بداية ونهاية، أمل جديد وذكرى أليمة. لكن في هذه المرة، كان هناك شيء مختلف. كان هناك إصرار في قلبها على أن تكون هذه "ليلى" هي خاتمة للألم، بداية للسلام لكل ليلات المستقبل.

بعد لحظات، حملت بين يديها ليلى الصغيرة. حزمة صغيرة من الحياة، تتنفس بصعوبة في عالم لا يرحم. رائحتها كأنها رائحة التراب بعد المطر، رائحة البدايات الجديدة. نظرت إلى عينيها، ورأت فيهما شيئاً مألوفاً، بريقاً عرفته في عينيها الشابتين قبل عقود، وفي عيني كل ليلى مرت بحياتها.

"يا ليلى..." همست، وعيناها تدمعان. "هل ستعرفين معنى السلام؟ هل ستتعلمين كيف ترقصين تحت أشعة الشمس دون خوف؟ هل ستعرفين الحب دون أن تدفعي ثمنه؟"

النخيل في الخارج كان يتمايل بهدوء، كأنها تهدهد هذه الروح الصغيرة. سمعت الجدة في وشوشتها أصواتاً قديمة.

منشورات «الفياء» AlFyaa«

حملت بغداد كل الليلات في رحمها، والآن تلد ليلى جديدة، وتقدمها للعالم كهدية ثمينة، محملة بآمال وأوجاع كل الأجيال. تدرك الجدة أن مصير هذه الصغيرة ليس بيدها، بل بيد بغداد نفسها، وبيد كل من يحمل في قلبه حباً لهذه المدينة العظيمة.

* * *

وصلت الجارة ليلى فرأت الجدة ليلى جالسة بهدوء في الردهة، تمسك بيديها المرتعشتين عدة زهرات رازقي. كان عبقها واضحا، كأنه يحاول طرد رائحة المطهرات الكيميائية التي تسيطر على المستشفيات. اقتربت منها، وقبلت يدها المتجعدة، ثم جلست بجانبها.

"مبروك يا جدتي." قالت ليلى الناجية بصوت هادئ، وعيناها تحملان ألف حكاية.

"ليلى أخرى يا بنيتي..." أجابت الجدة، وصوتها يرتجف قليلاً. "ليلى أخرى لبغداد."

"وليلى هذه، ربما، ستكون أقوى منا جميعاً." قالت الجارة ليلى، وهي تتأمل الورود البيضاء في يدها. "نحن زرعنا البذور، وحاولنا أن نروي الأرض، والآن حان وقت الحصاد."

في عقلها، دار شريط طويل من الأحداث. تذكرت الخوف الذي عاشته، الصدمة التي هزت كيانها، الليالي الطويلة التي قضتها في البكاء واليأس. لكنها تذكرت أيضاً الأيادي التي امتدت إليها، الكلمات التي رفعتها، والأمل الذي تسلل إلى قلبها رويداً رويداً، حتى أزهر. تؤمن بأن كل ليلى، رغم أنها قد تشارك سابقتها ذات الاسم، إلا أنها تحمل بصمة فريدة من الشجاعة والتحدي. دخلت ليلى إلى الغرفة الهادئة، حيث زينب تحتضن طفلتها الصغيرة. الغرفة بسيطة، لكنها

منشورات «الفيـاء» «AlFyaa»

بدت كأقدس مكان في بغداد كلها. الضوء الخافت يتسلل من النافذة، يرسم هالة حول السرير.

نظرت ليلى الناجية إلى وجه الرضيعة النائمة، وسحرتها هذه البراءة المطلقة. هذه الطفلة، ليلى الجديدة، ورقة بيضاء تنتظر أن تُكتب عليها قصتها، لكنها تحمل في جيناتها حبر كل القصص التي سبقتها.

"إنها جميلة يا زينب." قالت ليلى، وعيناها تلمعان بالدموع.

ابتسمت زينب ابتسامة متعبة، لكنها مشرقة. "اسمها ليلى."

"اسم يليق بها."

التقطت الجارة ليلى يد ليلى الصغيرة، كانت يداً صغيرة، ناعمة، لم تعرف قسوة الأيام بعد. شعرت بحرارة غريبة تسري في عروقها، شعور بالاتصال، بالاستمرارية. أدركت في تلك اللحظة أن "ليلى" ليست مجرد اسم، بل هي رمز، روح لبغداد. كل ليلى هي جزء من هذه الروح، تتجسد في شكل جديد، في زمن جديد، لتحمل الرسالة.

تساءلت ليلى: هل ستشهد ليلى الصغيرة ثمار تلك الجهود؟

تتأمل وجه الرضيعة، وتلقي ظلالاً تنبؤية في صمتها. هل ستكون حياة هذه الصغيرة مختلفة؟ هل ستشهد بغداد عصراً من السلام والاستقرار يسمح لليلى أن تنمو وتزدهر دون خوف؟ أم أنها ستواجه تحديات جديدة، بأشكال مختلفة، لكنها لا تقل قسوة عن تحديات من سبقتها؟

لم تكن الإجابة واضحة، لكن كان هناك أمل. أمل لا يرى بالعين المجردة، بل يُشعر به في نبض الحياة هذا. أمل يتجسد في هذا

منشورات «الفـياء «AlfYaa»

الكائن الصغير الذي يتنفس في مستشفى بغدادي جريح، أمل تتناقله وشوشات النخيل التي لا تنقطع، أمل يتجدد مع كل فجر جديد يشرق على المدينة.

* * *

عبر أزقة بغداد المليئة بالضجيج الذي لا يهدأ، حيث تتناغم أصوات الباعة المتجولين مع أبواق السيارات، وتختلط رائحة التوابل برائحة الغبار والوقود، كان فجر الأول من تشرين الأول في 2019يلوح في الأفق. كان هذا الفجر يحمل في طياته، كما كل فجر، ألف حكاية غير مروية، وألف سرّ لم يُكشف بعد،وفي مستشفى الراهبات، حيث ولدت ليلى الصغيرة، تتبع الوشوشات زينب وطفلتها أينما ذهبتا، وكأن كل زاوية من زوايا المستشفى قد شهدت ولادة ليلى سابقة، وفقدان ليلى أخرى.

زينب، التي احتضنت ليلى الصغيرة على صدرها وهي تستعد للخروج من المستشفى، شعرت بمسؤولية هائلة تثقل كاهلها. لم يكن الأمر مجرد تربية طفل، بل كان إطلاق روح جديدة في عالم ما زال يعالج جراحه. عيناها، رغم الإرهاق، تحمل قوة لم تكن تعرف أنها تمتلكها. قوة الأمومة، قوة الحياة نفسها، التي تتحدى الموت والفناء.

تذكرت زينب حديثها مع أمها، ليلى الجدة، قبل أن تغادر. كيف حكت لها الجدة عن بغداد، عن الليالي التي كانت فيها قوارب الصيد ترقص في دجلة على إيقاع الأغاني، وعن الأسواق التي تضج بالحياة والفرح. تلك الحكايات كبلسم يداوي جراح الروح، ويمنحها أملاً في أن تستعيد بغداد عافيتها يوماً ما. تستقر هذه الكلمات في ذاكرة زينب، كخريطة طريق للمستقبل.

«منشورات «الفيلساء» AlfYaa»

بينما كانت زينب تسير في ممرات المستشفى، التقت الجارة ليلى، التي ودعتها بحرارة، واعدة إياها بالدعم والمساعدة. كلمات ليلى لها بمثابة شهادة حية على أن الأمل ليس مجرد وهم، بل هو حقيقة يمكن تحقيقها بالصمود والعمل الدؤوب. "ليلى هذه لن تكون وحدها يا زينب. بغداد كلها ستحميها." هذه الوعود كالمطر الذي يروي الأرض العطشى.

ودعت زينب المستشفى، ودعت الوجوه المألوفة. شعرت وكأنها تحمل في ذراعيها كنزاً، ليس فقط كنزها الشخصي، بل كنز بغداد كلها. تنام ليلى الصغيرة بهدوء، غير مدركة للعالم الذي تنتظرها. العالم الذي سيتشكل بأيدي أمهات مثل زينب، وبقلوب صامدة مثل ليلى الجدة، وبعزيمة لا تلين مثل الجارة ليلى.

انفتحت أبواب المستشفى على مصراعيها، وغمرت شمس الظهيرة بغداد المتعبة بضوء جديد. كان الهواء يحمل رائحة الحياة، مزيجاً من رائحة الجوري والغبار والأمل. خرجت زينب، وهي تحمل ليلى، لتصبح جزءاً من هذا النسيج المعقد للمدينة. قصة ليلى قد بدأت للتو.

وبعد ساعات من الولادة، غادرت زينب المستشفى، ليبدأ يوم ليلى الأول في شوارع بغداد المحبوبة، وهي تحمل بين ذراعيها ليلى الصغيرة. ارتفعت الشمس قد في كبد السماء وبدأت ترسل خيوطها الذهبية عبر الغبار، لتلامس وجوه المارة المتعبين، وتضيء الجدران المتصدعة.

يتراقص سعف النخيل في كل مكان، كأنها تحيي ليلى الجديدة. تلك الوشوشات تحمل أصوات الأجداد والآباء، أصوات الليالي التي

منشورات «الفياء» «AlIYaa»

مرت ببغداد، حكايات الفقد، الصمود، والحب الذي لا يموت. ليلى الصغيرة تنام بهدوء بين ذراعي أمها، غير مدركة لثقل التاريخ الذي تحمله، ولا للآمال المعلقة عليها.

بينما كان تاكسي زينب يمر، تلاقت عيناها مع مجموعة من الأطفال يلعبون في شارع جانبي، ضحكاتهم البريئة تكسر حاجز الصمت الذي فرضته سنوات الحرب. رأت فيهم انعكاساً لما يمكن أن تكون عليه ليلى الصغيرة يوماً ما: طفلة سعيدة، تلعب، تضحك، وتحلم بمستقبل مشرق. في تلك اللحظة، شعرت زينب بقوة هائلة تدفعها إلى الأمام، قوة لا تعرف اليأس، قوة الإيمان بأن ليلى الصغيرة، وكل الليلات اللواتي سيأتين بعدها، سيعشن حياة مختلفة.

هذه ليلى الجديدة، ابنة بغداد الجريحة، لكنها أيضاً ابنة فجر جديد. ستنمو في مدينة ما زالت تحمل آثار الجراح، لكنها تتنفس بصيصاً من الأمل. هل ستكون حياتها مختلفة عن حياة ليالي الماضي؟ هل ستواجه تحديات جديدة، أم أنها ستعيش في سلام؟ تتردد هذه الأسئلة في ذهن زينب، لكنها لم تكن تشعر بالخوف، بل بالإصرار.

في ذلك اليوم، وفي كل يوم تالٍ، تتجدد بغداد. روحها، روح "ليلى"، أبديّة. محملة بالذكريات، بكل ما مضى من ألم وفقدان، لكنها مفتوحة على إمكانيات جديدة، على بدايات مختلفة، منذ أن بدأ هدير شبيبتها في ساحة التحرير.كل خيط في نسيج حياتها كان يروي قصة، وكل قصة أصبحت جزءاً من ملحمة "ليلى البغدادية" الأزلية.

على ضفاف دجلة، حيث تتلاقى مياه الماضي مع مياه الحاضر، وحيث تتمايل سعفات النخيل كأجنحة حمام، تهمس بغداد، تروي حكاية "ليلى". ليست نهاية، بل بداية جديدة، تتخللها بصمات من

منشورات «الفيـاء «AlYaa»

الأمل والتجدد، كشهادة على مرونة الحياة في وجه أقسى الظروف.

* * *

ارتفعت شمس بغداد الآن في كبد السماء، تلقي بظلال طويلة على الأزقة الضيقة والساحات الواسعة، حيث تدب الحياة ببطء، كأنها تستعيد أنفاسها بعد نوم عميق ومضطرب. حملت زينب طفلتها ليلى، وتابعت طريقها نحو البيت، مع كل شارع تعبره سيارة التاكسي، تثقلها مسؤولية هذا الكائن الجديد، ولكن أيضاً ترفعها بجناحي أمل لا يُوصف. لم تكن زينب مجرد أم تخرج من المستشفى، بل كانت رمزاً، تجسيداً لكل الأمهات اللواتي مررن بهذا الطريق، تحملن ألم الولادة، ثم خرجن إلى عالم مليء بالتحديات، لكنهن لم يفقدن الإيمان أبداً.

تذكرت زينب صوراً من الماضي، لم تشهدها بنفسها لكنها عاشتها في حكايات أمها وجدتها. صور لبغداد قبل عقود، بغداد التي تنبض بالفرح، بغداد الحدائق الغنّاء، بغداد التي تُعرف بسلامها وجمالها. والآن، رأت بغداد التي تحمل جروحاً عميقة، بغداد التي تحاول لملمة شتات نفسها. لكن في عيني ليلى الصغيرة، رأت وعداً بعودة تلك البغداد، بعودة الحياة إلى أزقتها، وضحكة الأطفال إلى ساحاتها.

مرت زينب بسوق شعبي صغير، حيث أصوات الباعة تعلو وتخفت، ورائحة الخبز الطازج تمتزج برائحة المأكولات. كان السوق يعج بالناس، كل منهم يحمل قصته الخاصة، أحلامه، وأحزانه. في هذا الزحام، شعرت زينب بأنها جزء من نسيج أكبر، نسيج بغدادي لا ينقطع، يتجدد مع كل نفس، مع كل صرخة، مع كل

منشورات «الفيـاء» AlYaa«

ولادة.

النخيل يتمايل ببطء على جانبي الطريق، سعفاته الخضراء تتهدل كشعر امرأة حزينة، لكنها تحمل في طياتها حكمة الأجداد. وشوشتها كأنها تروي لليلى الصغيرة حكايات الزمن، تهمس لها عن دجلة الخير، عن ليالي الشتاء الباردة، وعن صيف بغداد الحار. تلك الوشوشات هي لغة الأجيال المتعاقبة، جسراً يربط الماضي بالحاضر، ويفتح نافذة على المستقبل.

وصلت زينب إلى عتبة بيتها المتواضع، الذي حمل هو الآخر آثاراً من الماضي، من قصف هنا، وترميم هناك. عندما فتحت الباب، شاهدت أشعة الشمس تملأ الغرفة، وأضاءت الجدران المتعبة. تنتظرها أمها، ليلى الجدة، وابتسامة دافئة تزين وجهها.

سلمت زينب ليلى الصغيرة إلى جدتها، التي احتضنتها بحنان بالغ، وكأنها تحتضن كل ليلات بغداد في هذه الصغيرة. تنظر ليلى الجدة إلى حفيدتها بعينين تملؤهما الحكمة، ثم قالت بصوت خافت، كأنها تهمس لها بسرٍّ عتيق: "ليلى هذه يا بنيتي، هي الختام، وهي البداية. هي دجلة التي لا تتوقف عن الجريان، وهي النخلة التي لا تذبل."

وفي مساء ذلك اليوم، بينما كانت النجوم تتلألأ في سماء بغداد، وحفيف سعف النخيل يتردد في الأرجاء، جلست زينب بجانب مهد ليلى الصغيرة، تراقبها وهي تنام بهدوء.

برلين - بوخ - 2021

منشورات «الفياء» «AlfYaa»

منشورات «ألف باء AlfYaa»

صدر للكاتب

1ـ **ليلات بغداد** (قصص) ـ النسخة الرقمية "ألف ياء" تشرين 2/ نوفمبر2025.

منشورات «ألف ياء «AlfYaa

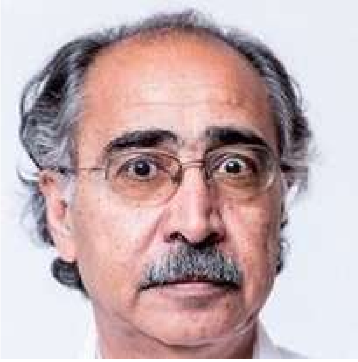

طالب الداوود

طالب الداوود "طالب صالح محمد الداوود"، وُلد في 27 آذار 1955 في مدينة الفلوجة ـ محافظة الأنبار ـ العراق.

هاجر عام 1979، بسبب الأوضاع السياسية في العراق وعاش في: بلغاريا 1979، الجزائر 1979- 1984، سوريا 1984- 2012، تركيا 2014- 2015، اليونان 2015، ويقيم في ألمانيا منذ العام 2015ويحمل جنسيتها.

حاصل على بكالوريوس علوم حياة ـ أحياء مجهرية ـ كلية العلوم ـ جامعة بغداد ـ 1978

الخبرة والعمل:

ـ المدير التنفيذي ـ دار الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع ـ دمشق ـ سورية 1987- 1990،

ـ أعمال متنوعة في مجموعة من دور النشر السورية 1990- 1993،

ـ أحد مؤسسي الجمعية العراقية لحقوق الإنسان وناشط في

منشورات «ألف ياء» AlfYaa«

مجال حقوق الإنسان 1986- 2005،

ـ مسؤول القسم الفني، مسؤول قسم الإعلام الإلكتروني، في الاتحاد العربي للحديد والصلب ـ المكتب الإقليمي بدمشق ـ سورية ـ 1994- 2010

ـ محرر في مجلة «الصلب العربي» 1994- 2010،

ـ رئيس قسم الرصد الإعلامي ـ الهيئة العراقية للإعلام والاتصالات تشرين الأول، 2010،

ـ سكرتير التحرير التنفيذي ، صحيفة «الصباح الجديد» نهاية 2012- بداية 2013،

ـ مدير عام إذاعة المحبة أف أم ـ بغداد ـ النصف الأول من عام 2013،

ـ مؤسس ورئيس تحرير موقع «المعادن العربية» المتخصص بالصناعات المعدنية،

ـ مصمم أغلفة محترف، أنجز أكثر من ثلاثمائة غلاف للكتاب العرب والعراقيين وللكتب المترجمة إلى اللغة العربية،

ـ مصمم مواقع ويب Web Site Designer،

ـ مؤسس وصاحب "شركة إعلام العرب"العراقية 2011- حتى الآن،

ـ مؤسس ومدير موقع "ألف ياء AlfYaa" المكتبة العربية الرقمية المجانية،

ـ أحد مؤسسي جمعية "AlfYaa e.V" الثقافية (تحت التأسيس) ـ برلين ـ ألمانيا،

منشورات «ألف ياء» «AlfYaa»